

حديقة الأرامل
ضياء جبيلي
قصص
ELCTRONIC LIBRARY
سطور

ضياء جبيلي

حديقة الأرامل

قصص

ضياء جبيلي

حديقة الأرامل

قصص

قصص

ضياء جبيلي

حديقة الأرامل



سطور
للنشر و التوزيع

حديقة الأرامل

GARDEN OF WIDOWS

ضياء جبيلي

Diaa Jobeily

الطبعة الأولى: 2017

إصدار دار سطور للنشر والتوزيع

بغداد - شارع المتنبي - مدخل جديد حسن باشا

هاتف: 07711002790 - 07700492576 - email: bal_alamc@yahoo.com

First Published by Dar Sutour For Publishing and Distribution

Baghdad - Iraq - Al Mutnabi street - Jaded Hasan Basha Entry

ISBN:978 - 1 - 77322 - 212 - 7

إلى: ناصر عباس شعبان وعماد كاظم حسن،
في موتهما المبكر.

«الزيف في الأشياء لا في الكلمات أبداً»

مدن لا مرئية. ايتالو كالفينو

عمر الورد

(1)

لا أحد يعرف السر، وراء روائح العطور، التي تنبعث من دموع كريمة، كلما أجهشت بالبكاء.

الأب قال أنها طفلة مباركة. والأم صاحت بملء فمها: معجزة!

(2)

المرة الأولى التي بكت فيها كريمة كانت في المستشفى، عندما خرجت من رحم والدتها إلى الحياة، فرفعتها القابلة من قدميها وراحت تطبطب على قفاها حتى أطلقت صرختها الأولى. في حينها، لم تشمّ القابلة سوى الروائح التي رافقت عملية المخاض، لأن كريمة لم تذرف دموعها إلا بعد ثلاثة أشهر، كما هو شائع لدى الأطفال حديثي الولادة. وكانت والدتها هي أول من اكتشفت الأمر، لكنها لم تتعرف على مصدر الرائحة الطيبة إلا بعد مضي أيام من الحيرة والبحث والتقصّي.

كانت تظن في البداية إنها رائحة البودرة المعطرة التي تضعها للطفلة

قبل أن تحممها، وحين لاحظت أن تلك الرائحة لا تفوح إلا عندما تبكي، أخذت بأصبعها شيئاً من دموعها وشمّته، فكانت المفاجأة المذهلة. لم تصدق الأم، تذكّرت أنها تعطّرت قبل أن تسمع بكاء كريمة وتُهرع إلى تغيير حفاضها، ولا بد أن شيئاً من العطر الذي رشّت منه ما زال عالقاً بأصابعها، رغم أن رائحته لا تشبه رائحة العطر الذي كان يتفشى من دموع ابنتها الصغيرة.

تركتها في مهدها، وأسرعت إلى المطبخ. فتحت صنبور المغسلة وشطفت يديها بالصابون حتى تأكدت من زوال العطر المتشبّث بأصبعها، ثم عادت بعدها إلى كريمة التي كانت دموعها في ذلك الحين قد جفّت وتلاشى أثرها. لكن الأم لن تنتظر حتى تتغوّط كريمة من جديد وتبدأ بالبكاء مطالبة تغيير الحفاض، أو تجوع، أو يوجعها شيء، أمعاؤها مثلاً، مما سيدفعها إلى ذرف المزيد من الدموع، إنما راحت تفكر بطريقة ترغمها من خلالها على ذلك. لن تضربها على أية حال، لكنها ستدغدغها وتجبرها على الضحك والكركرة المستمرة، فليس بالبكاء وحده تسقط الدموع. وهو ما فعلته مؤخراً، عندما شرعت بدغدغة الطفلة من ابطيها وجنبيها وباطن قدميها. وما أن سقطت أول دمعة من عينها اليسرى حتى بادرت إلى انتشالها بأصبع السبابة وشمّها، على الرغم من أن الرائحة العطرة قد انتشرت قبل هذا على نحو لا يُخطئه حتى الأنف التالف الفاقد لحاسة الشمّ.

(3)

حتى ذلك الحين، كان الأب يظنّ أن زوجته هي مصدر الروائح الزكية. وكان يوبخها على تبديد المال في شراء العطور النفيسة والافراط في استعمالها، ولا يعلم أن ابنته الصغيرة كريمة هي التي تفرز دموعاً ذات روائح مختلفة، ففي كل مرة تبكي تنبعث من دموعها رائحة طيبة جديدة تختلف عن سابقتها.

ولم تكن الزوجة تكترث لتوبيخ زوجها، وما زالت غير عابئة بذلك وتفتّش عن مصدر الرائحة حتى اكتشفته في ذلك اليوم، وأخبرت الزوج بالأمر، فأصيب بالدهشة، عدّ ذلك من قبيل التكريم الذي لا يحظى به سوى المقربين من الرب. في الوقت الذي ظلّت الزوجة تفنّد تلك النظرية مرددة بذهول:

«معجزة! إنها المعجزة!»

ولكي يتأكدا أن ليس هناك من سبب عضوي خطير وراء تلك الروائح، حمل الزوجان ابنتهما وراحا يتنقلان من طبيب إلى آخر. إلا أن أحداً من أولئك الاختصاصيين لم يجد في حالة كريمة ما يستدعي الخوف. فالطفلة تبدو طبيعية ولا تشكو من شيء، ولديها مناعة قوية ضد الأمراض، وتتمتع بصحة جيدة، وأن على الزوجين التكيّف مع ما حبيت به ابنتهما، فعلى الأقل رائحتها عطرة، وليست منتنة كما ابتُلي بذلك غيرها من الذين لا تفوح منهم سوى رائحة الزرائب العطنة.

(4)

كانت كريمة المولودة السادسة في العائلة، فقد أنجبت والدتها قبلها خمسة أولاد، ثلاثة ذكور وأنثى. كانت فتاة جميلة، بعينين عسليتين واسعتين، وأنف مستقيم بحافة متعرجة وخياشم واسعة، وشفتين صغيرتين رفيعتين تكشفان عن شخصيتها الحساسة ورقتها وخجلها.

بمرور الأيام والأشهر، صار اسم كريمة على كل لسان في الحي. وبدأت النساء بزيارتها والتبرك بدموعها، وهزّ مهدها، وعقد النذور من أجلها. كن يعتقدن أنها فتاة مباركة، وأن ثمة سرّ إلهي وراء الدموع المعطرة التي تنضح من عينيها. حفظن مواعيد بكائها اليومية، ليهرعن إليها من أجل التبرك والتعطر والشمّ. وإذا حدث ولم يكن هناك سبباً للبكاء، تضطر الأم إلى تأخير موعد تغيير الحفاض، وهو ما يضايقها ويجعلها تبكي.

إذا ما أراد أحد، من أفراد الأسرة، أن يخرج، في موعد أو لقاء أو عمل، فإنه يعمد إلى نهرها. يزعق الجميع في وجه كريمة لتبكي، فيأخذوا شيئاً من دموعها المعطرة.

وكما لو أنها اكتشفت الحيلة، صارت كريمة تقاوم البكاء بعناد وإصرار. حتى الدغدغة لم تعد تنفع في استجلاب دموعها. ربما تبول، لكنها لا تبكي. الأمر الذي أغضب والدتها، فعمدت إلى قرصها حيناً وعضّها حيناً آخر، لكي تجبرها على ذرف الدموع. كانت تقرصها في كل مكان، من زنديها وفخذيها، حتى امتلأ جسدها بالندوب، ودُبغ جلدها من كثرة القرص والعضّ، ولم تعد تبكي. وكانت كلما كبرت كلما قلّ

بكاءها، وهجرنها النسوة المتبركات، مما تسبب بخسارة كبيرة للأم التي جعلت من ابنتها مصدراً مدراً للمال وتحصيل النذور، فقد امتلأ بيتها طيلة السنوات الماضية بالدجاج والديكة والبطّ، وكاد أن يتحول إلى مزار تقصده النساء من كل مكان، ظناً منهنّ أنها تجلب الحظ والبركة، وتعيد الأسير، وتنفخ بطن العاقر، وتداوي المرضى، وتبرئ العوران والعميان والعرجان وكل ذي عاهة مستديمة.

(5)

صارت الأم تصحب كريمة إلى مجالس العزاء النسوية في عاشوراء، فتتأثّر بنعي الندّابات وتجهش بالبكاء. عندئذ، تبدأ والدتها بجمع الهبات وتملأ جيبوها منها. لكن البنت اكتشفت الحياة مجدداً، وكفّت عن البكاء.

وحين بلغت الخامسة عشرة، وذاع صيتها في الأرجاء، تقدم لخطبتها سوق العطارين بأسره. قدموا لها أعلى المهور وأغلى الهدايا، لكنها رفضتهم جميعاً. كانت تعلم بنوايا تجار العطور الطامعين بدموعها المعطّرة. وتعرف كيف أنهم سيحولونها إلى أداة لتحصيل الأموال. إلا أن عنادها بهذا الشأن لم يستمر طويلاً، فقد أرغمها الأب في النهاية على الزواج من أكثر أولئك العطارين ثراء. وكان هذا معروف بجشعه. فمنذ ليلة الزفاف، وهو يحاول استجلاب دموعها، ليعبئها في قوارير، ويصنع منه عطوراً نادرة وثمينة.

حدّثها عن نيته بالترويج لمنتج جديد ينافس أرقى العطور في السوق

ويتغلب عليها. ووعدها بنصف الأرباح، وأنه سيضع اسمها ماركة لهذا المنتج. إلا أن كل ذلك لن يحصل ما لم تبكي.

«ابكِ يا صغيرتي» يقول لها متوسلاً: «هيا ابكِ الآن واذرفي دموعكِ العزيزة الذهبية الغالية!»

لكن.. كريمة لم تكن كريمة في تلك الليلة، لم تذرف دمعة واحدة. كانت عنيدة بما يكفي لجعل تاجر العطور يدور في الغرفة مثل حمار الطاحونة، بينما هو يفكر بطريقة أخرى يستميل بها زوجته الصغيرة. وحين يئس من جدوى محاولاته السلمية تلك جنح إلى العنف. كان يمسها من كتفيها ويهزها زاعقاً بوجهها، آمراً إيها بالبكاء، لكنها لم تفعل. نهرها ولم تفعل. صفعها ولم تفعل. عضّها ولم تفعل.

حينذاك، علم تاجر العطور أن ليس ثمة شيء يمكن أن يوجع المرأة ويدفعها إلى البكاء أكثر من تمزيق غشاء البكارة.

اغتصبها بالقوة. فعل ذلك بطريقة حيوانية أشعرت الفتاة بالذلّ.

ومنذ ذلك اليوم، وهي لا تكفّ عن البكاء، وافراز الدموع التي، أدرت على تاجر العطور أموالاً طائلة.

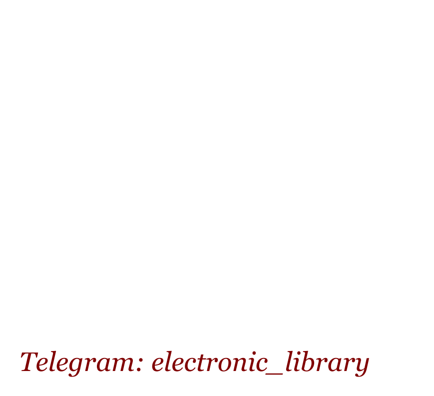
وبينما هو يستنزفها على هذا النحو، كانت هي تذبل، وتذبل. حتى أصبحت أنحل من عود. تغضّن وجهها، وترهل جلدها، حتى التصق بالعظام.

(6)

كريمة التي أصبح اسمها ماركة شهيرة في عالم العطور، في صبيحة أحد الأيام، كفّت عن البكاء إلى الأبد.

ورُثيت بثلاثة كلمات:

«كانت بعمر الورد!»



البحث عن الزمن المفقود

لم يقرأ الاستاذ زكي في حياته سوى رواية واحدة، أهداها له الموظف المتقاعد، الذي شغل مكانه في دائرة جمارك البصرة قبل أربعين عاماً.

كانت إحدى تلك الروايات الكلاسيكية الضخمة التي تستغرق قراءتها فترة طويلة، قد تمتد إلى أعوام، بالنسبة لمن هو غير معتاد على القراءة مثل الاستاذ زكي، الذي كاد أن يفنى عمره في حين أنه لم ينتهي من إتمام قراءة تلك الرواية.

كان يحتفظ بها في أحد الدواليب الحديدية، بين أضابير الصادر والوارد. فكلما سنحت له الفرصة وكان هناك متسع من الوقت أخرج أحد أجزاءها السبعة وبدأ بالقراءة. كان يقرأ في اليوم صفحة واحدة أو اثنتان، أو لا يقرأ أبداً طوال أيام الاسبوع المتبقية. أحياناً ينسى الرواية لفترة، ثم يعثر عليها بينما هو يفتش بين الأضابير، فيعود إليها، لكنه لا يفهم شيئاً بسبب فارق الزمن بين استئنافه القراءة وآخر مرة قرأ فيها، فيضطر في حينها إلى أن يبدأ من جديد. وكان كلما رآه أحد من الموظفين وهو يقرأ، أو يتصنع القراءة يسأله عن الكتاب الذي بين يديه، فيجيبه هذا قائلاً بتصنّع ومباهاة:

«إنها رواية»

«حقاً؟»

«نعم.. رواية تتحدث عن الزمن المفقود»

في أحد الأيام، سأله أحد أولئك الموظفين الفضوليين:

«وماذا يعني الكاتب بالزمن المفقود؟»

فحك الاستاذ زكي رأسه مفكّراً وقال بعد صمت وتأمل:

«هذا ما أسعى إلى معرفته يا صديقي»

«حسناً» قال السائل، وكان زميلاً له يعمل مؤرشفاً: «هل ستخبرني إذا عرفت؟»

هزّ الاستاذ زكي رأسه وعاد إلى القراءة. لكنه لم يكن يقرأ، إنما كان ينظر فقط إلى دفتي الكتاب ناقلاً عينيه يميناً ويساراً، منتظراً أن يخرج زميله اللجوج ليغلقه، ويعود إلى روتينه المعتاد في العمل.

بمرور الأعوام، أصبح الاستاذ زكي يُكنى، من قبل الموظفين في دائرة الجمارك، بالمثقف. على الرغم من أنه لم يمسك كتاباً آخر سوى تلك الرواية. ثم أصبح موضع سخرية البعض منهم، في حين شرع البعض الآخر بمناكفته، حتى صار مؤخراً مضرباً للمثل. لكن الاستاذ زكي لم يكن يكترث لكل ما يقال عنه، وواظب على قراءته المتقطعة التي استمرت إلى أن حان موعد إحالته على التقاعد بعد أربعين عاماً من الخدمة. وكان ثمة موظف شاب جديد يستعد لإشغال مكانه في قسم الصادر والوارد، فخطرت له فكرة هي أن يقوم بإهداء الرواية التي أنهى، قبل مغادرته الدائرة بيوم واحد، الجزء السابع والأخير، من دون أن يفهم منها شيئاً. لم يسأله أحد ماذا عنى الكاتب بالزمن المفقود، فأغلب الذين

توجهوا إليه بالسؤال إما ماتوا أو أُحيلوا إلى التقاعد قبله بسنوات، أو فُصلوا من العمل بسبب تهمة سياسية أو اختلاس.

في اليوم التالي، وبعد أن سلّم الاستاذ زكي ما في ذمته إلى الموظف الجديد، تحمحم قليلاً ثم قال:

«هل لك أن تقبل مني هذا الهدية؟»

فرمقه الموظف الشاب بعينين متوهجتين أوضحتا حجم السرور الذي بدأ يشعر به حينذاك، عندما ناوله سلفه الصندوق الكارتوني الذي وضع فيه أجزاء الرواية، وتركه يفتحه ليكتشف ما يحتويه. عندئذ، تجهم وجه الموظف الشاب الذي لا يبدو أنه مهتم بالقراءة والكتب. لكن الاستاذ زكي، وبحكم تجربته، كان على دراية بأنه، عاجلاً أم آجلاً، ويحدث ذلك على نحو سحري، سيبدأ بقراءة الرواية. فهو أيضاً لم يكن مهتماً بالقراءة حين أُهديت له قبل أربعة عقود، وتكهن أنه سيتركها طعماً للغبار والأرضة والتعفن أو يعطيها إلى أحد الباعة المتجولين ليلف بها بذور عباد الشمس.

جمع الاستاذ زكي أغراضه وحاجياته، ودّع الموظف الشاب، وغادر دائرة جمارك البصرة إلى غير رجعة. وعلى طول المسافة بين مبنى الدائرة والبيت، كان يفكر في ما إذا أخطأ حين أهدى مجلدات الرواية إلى الموظف الجديد. لكنه، في الوقت نفسه، أحس كما لو أنه تخلص من عبئ كان يثقل كاهله طيلة العقود الأربعة الماضية.

«حسناً» قال في نفسه: «لا شيء في تلك المجلدات البليدة يستأهل أن يقضي المرء عمره في معرفتها»

كان قد وصل في سيره إلى شارع الكتب، وفكر في أن يسأل أحد الباعة هناك عما إذا كانت تلك الرواية متوفرة. كان يريد التأكد من وجودها فحسب، من دون أن تكون له رغبة في اقتنائها. فربما كانت وهماً ما زال يلازمه حتى اليوم الأخير من خدمته المدنية. لكنه عدل عن ذلك أخيراً، اجتاز شارع الكتب وأكمل طريقه راجلاً، لم يلتفت وراءه أبداً، وبدا عندئذ كأنه يخشى من رؤية شخصيات الرواية وهم يتبعونه. تلك الشخصيات التي لم يحفظ منها اسماً واحداً، أو يعرف ماذا تريد، أو إلى أين تبغي الوصول.

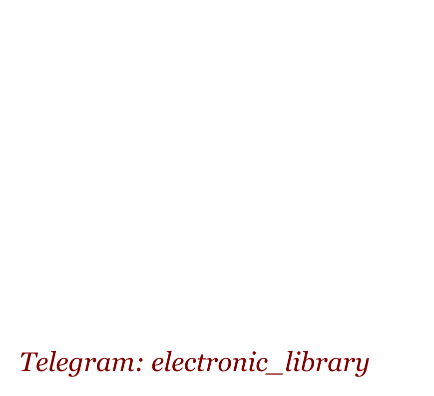
وكأغلب المسنين وجد الاستاذ زكي نفسه، بعد تقاعده من الوظيفة، مهووساً بعملين بيتيين: حمل حفيدته ورمي النفايات. كان يستيقظ في ساعة مبكرة من صباح كل يوم، يحمل كيساً مليئاً بالنفايات، ليرميه في حاوية الأزبال، ليس بعيداً عن البيت. يعود بعدها، يستحم ويتناول فطوره، وينتظر موعد استيقاظ حفيدته ليلاعبها ويريها الدجاجات والقطط، أو يصطحبها في نزهة إلى الحديقة القريبة.

في إحدى تلك الساعات المبكرة، بعد أن ألقى كيس النفايات، وكان في طريق عودته إلى البيت، فكر الأستاذ زكي بجدوى أن يبحث في محتويات الكيس، فربما وجد شيئاً ثميناً رُمي مع النفايات بالخطأ، ملعقة أو شوكة، أو ربما قرط عائد لحفيدته الصغيرة. أحس أنه مثل كلب عاد إلى اقتفاء أثر برازه. لكن إغراء النفايات اجتذبه أخيراً، فاستدار وراح يغذ السير باتجاه الحاوية، لكنه فوجئ بوجود مجموعة من المتقاعدين المسنين هناك، وقد أخرجوا أكياسهم من الحاوية، وأفرغوا محتواها على الأرض، وراحوا يبحثون بعصيهم وسط النفايات، وينتشلون

أشياءهم التي لم تكن ذات قيمة، وقد بدت للعجوز المتقاعد كأنها أعوامهم البائدة الصدئة.

«إذن...» كما لو أنه سمع حكمة هزّ رأسه في إثرها قائلاً: «هذا ما يسمونه البحث عن الزمن المفقود!»

واندفع حاشراً نفسه بين المسنين.



محنة الجندي حميد

«عجباً لك أيها الجندي المسكين، تركوك وحدك في الأرض الحرام بلا حتى أعواد ثقاب»

(وليم فوكنر ـ راتب جندي)

حين استيقظ الجندي حميد من إغمائه، في صباح أحد أيام آذار من عام 1987، وجد أنه ملقى على جانب وجهه الأيمن، بين عشرات الجثث التي خلفتها إحدى المعارك الطاحنة، على الحدود العراقية الإيرانية، في شرق البصرة. أحس بثقل بعض تلك الجثث المتكومة فوقه. جثث باردة، متيبسة، سرعان ما ستتعفن وتنتن الجو، ويعبث بها الدود، وتنهش من لحمها العقبان، وتستحيل في النهاية إلى هياكل عظمية تشهد على بشاعة الحروب.

أغمض عينيه مجدداً، لم يتحرك من مكانه أبداً. خشي أن يكون هدفاً سهلاً لأحد القناصين الذين عادة ما يتربصون لضحاياهم من الناجين خلف السواتر، فظلّ في مكانه لا يحرك ساكناً، ولا يعرف ما الذي عليه فعله في مثل هذه المواقف الحرجة، فقد جيء به من مركز تدريب المشاة إلى الجبهة مباشرة، ولم يعلمونه سوى إطلاق النار من البندقية الآلية

كلاشنكوف. تمنى لو يكون بمقدوره تحريك يده وإيصالها إلى أسنانه، فيتمكن من عضّ إصبعه السبّابة ندماً على تركه الدراسة وتعجيل سوقه إلى الحرب. وهو المشهد الذي كانت أمه تتنبأ به قائلة:

«يوماً ما ستعضّ أصابعك من الندم!»

فيسخر هو منها بقوله:

«لن أعضّ هذه الأصابع إلا لآكلها!»

ويبدو أن هذا اليوم جاء حتماً، إلا أن حميد لم يأكل أصابعه بعد، ليس لأنه يرى أن من غير المجدي فعل ذلك، خصوصاً وأن الآوان فات في ذلك الحين، بل لعدم مقدرته، أو الأحرى لخشيته من الدخول في عداد القتلى بشكل فعليّ هذه المرة، ما أن يحرك إصبعاً واحدة من أصابع يديه.

بعد مضي ساعة، سأل حميد نفسه عما إذا كان سيلبث على هذا النحو إلى الأبد، جثة حية بين الجثث الممزقة لقتلى الحرب في الأرض الحرام، على الخط الفاصل بين البلدين. تغلب على وساوسه وقرر النهوض، لكنه سمع أصوات أعيرة نارية بعيدة في تلك الأثناء، فعدل عن قراره وعدّ ذلك تهوراً. رأى أن من الحكمة في هكذا ظرف أن يبقى ساكناً، وينتظر حتى يحين الوقت المناسب لمغادرة هذا المكان الموحش، فعلى الرغم من الإصابات التي خلفها الرصاص وشظايا القنابل في أنحاء متفرقة من جسده، لكنه يشعر بأنه ما زال بإمكانه المقاومة وتصنّع الموت لساعتين أو ثلاثة.

رفع جفنيه وتراءى له أن الجندي المطروح بإزائه وجهاً لوجه كان ينظر إليه. فكّر في إمكانية أن يفرك عينيه، ليرى إن كان ما لمحه في جزء من

الثانية حقيقة أم من مخيلته. غير أنه أغمضهما بدلاً من المجازفة بفركهما بيديه، وعندما عاد إلى فتحهما لمح المشهد نفسه، أو ربما توهمه، أو تخيّل للحظة أن الجندي الذي يكاد أن يلتصق أنفه بأنفه كان ينظر إليه، وما أن فتح عينيه حتى أغلق هو عينيه المدميتين.

أرعبه الأمر، حين ظن أن الجندي المطروح إلى جانبه ما زال حياً هو الآخر، لكنه عاد لينفي هذه النظرية، فلا يعقل أن يستمر المرء في كتم أنفاسه كل هذا الوقت.

«لكن.. هل هو حقاً لا يتنفس؟» تساءل بحيرة وقلق: «ربما عليّ أن أجس نبضه».

أيضاً، لم يفعل حميد ذلك، فهو يعرف أن أي حركة ليست في مكانها، وكل خطوة غير مدروسة ربما ستقوده إلى حتفه الذي لم يلقه في الليلة الماضية، حين بلغت الحرب بين الطرفين المتناحرين إلى أقصى سعارها الوحشي، قبل أن تتحول إلى معركة بالسلاح الأبيض، كما يُعبّر عن القتال وجهاً لوجه، بالحراب والأيدي، تحت الأضواء الكاشفة لقنابل التنوير التي كان يطلقها الجانبان. كان في حينها يحاول صرع أحد عناصر الباسيج الإيرانيين، عندما أحس بضربة قوية على رأسه من الخلف أفقدته توازنه وأُغمي عليه. وعلى ما يبدو أن أحدهم باغته بتلك الضربة من أخمص بندقيته، بدلالة الدم المتيبس على رقبته.

خطر لحميد في ذلك الحين التكلم مع الجندي الملقى على جانب وجهه، وملاحظة إن كانت ثمة رد فعل ستبدر منه.

«لكن.. ماذا أقول له يا ترى؟»

تساءل مجدداً، وراح يفكر بماذا يخاطبه. وبما أنه جندي مثله، فكّر حميد، فسيقول له: هيييي! أيها الجندي، هل أنت حيّ؟ لكنه رأى أن ذلك يشبه مناداة أمه عليه في بعض الأحيان، عندما يكون في فراشه وتريد الدخول عليه، فتسأله من وراء الباب:

«ابني حميد.. هل أنت نائم؟»

وكان يتساءل وقتها عما إذا كانت تلك الأم ستظنّ أنه نائم حقاً في حال لم يرد عليها. لهذا، هو لا يعوّل كثيراً على هذا الاختبار لمعرفة إن كان الجندي الآخر حياً أم ميتاً، ولا يعني عدم رده أنه ميّت، كما لا يثبت ذلك أنه ما زال حياً أيضاً.

ربما كان حيّاً فعلاً، فكّر مجدداً، ويلعب اللعبة نفسها، لعبة تصنّع الموت. ومن ناحية أخرى ربما يكون ميّتاً أيضاً. في كلا الحالتين ليس ثمة طريقة لمعرفة ذلك، ومن الأفضل إنهاء الأمر باعتباره ميّتاً، والتفكير في طريقة للتخلص من هذا المطب الصعب.

«لكن كيف؟»

ما زال حميد يتساءل.

كان شعوره بالضجر يتنامى بمرور الوقت. لكنه لا يستطيع فعل شيء من المحتمل أن يجلب له المزيد من المتاعب، ويوقعه إما في الأسر أو الهلاك. إذ لا بد أن يكون المكان مراقباً وفي مرمى نيران الطرفين المتنازعين اللذين ربما يفكّران، كل طرف على حدة، بإخلاء الجثث العائدة له.

في مثل هذه الأوقات، أثناء الحياة المدنية، كان حميد يزجي الفراغ بالسباحة في الأنهار، ومتابعة أخبار الدوري الكروي. قد يخرج مع زملائه في نزهة إلى كورنيش المدينة، أو يرتاد دور السينما. لم يفكر أن يأتي يوم كهذا اليوم يكون مرغماً فيه على قضاء الوقت بتصنّع الموت إلى أن يحين الوقت لإخلائه من أرض المعركة. تذكر حين كان في الثانية عشرة من عمره في بداية الحرب، عندما كان يلعب مع أقرانه في الحي لعبة الحرب. كانوا يصنعون البنادق من جريد سعف النخل، ويتخذون من الدرقات التي ينتزعونها من السلاحف بوحشية خوذاً يضعونها على رؤوسهم، ويتبادلون البصاق فيما بينهم، مستعيضين بذلك عن الرصاص، ويتصنعون الموت في محاكاة بارعة لقتلى الحرب الذين يرونهم في «صور من المعركة» يبثها تلفزيون بغداد، وتظهر فيها جثث الجنود الإيرانيين الممزقة والمتفحمة.

لم يدر في خلده أنه سيبلغ الثامنة عشرة من عمره والحرب ما تزال قائمة، فيُساق إلى إحدى جبهاتها المستعرة، ويجد نفسه يتصنّع الموت مجدداً، بين جثث حقيقية لجنود من لحم وعظم ودم. جنود لا يعرف هوياتهم، ومن هو العراقي منهم ومن هو الإيراني. لكنه يعرف أيضاً أن الجميع قتلى، تقاتلوا فيما بينهم حتى الموت. حتى ذلك الذي لم يكن يؤمن بقضية الدفاع المقدس عن الوطن كحميد الذي وعد نفسه بعدم إهراق دم أحد، وجد نفسه بمواجهة الموت مباشرة، فإما قاتل أو مقتول. فدفعته غريزة البقاء إلى أن يقتل هو الآخر، وها هو الآن يقبع وحيداً بين جثث أولئك الجنود المجهولين، ويبدو خائفاً ومتردداً في النهوض ومغادرة ساحة المعركة المليئة بالإشلاء والدماء.

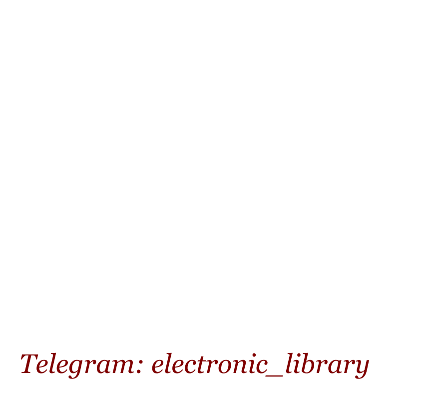
وبينما هو على هذا الحال، سمع الجندي حميد العشب المتيبس وهو ينوء تحت ثقل البساطيل بخشخشة مرعبة. وأصوات نوابض الإرجاع في البنادق، تعلن إن ثمة من صار مستعداً لإطلاق النار في أي لحظة يتحرك فيها. فعلم أن مجموعة من جنود الإنقاذ يتقدمون في تلك الأثناء لإخلاء الجثث. إلا أن أحداً منهم لم يتفوّه بكلمة واحدة يتعرف من خلالها على هويتهم، كما لا يمكنه التعويل، في حال حدث ذلك، على اللهجة التي يرطنون بها، فغالباً ما يستخدم أحد الطرفين لغة الآخر، في مثل هذه المواقف، بقصد التظليل. فمكث في مكانه لا يلوي على شيء. تثاقلت أنفاسه أكثر، حين أحسهم على مقربة من مكان المجزرة. حتى أنه سمع أحدهم يبصق وآخر يتحمحم. وشم رائحة دخان سجائر. وشعر بقدم ثقيلة تحاول قلبه على قفاه، لكنها كفت عن ذلك أخيراً.

ثم سمع الجندي حميد همهمة وزفير. وأحس بأنفاس الجندي الملقى بمواجهته وهي تلفح وجهه. فتح عينيه ثم أغمضهما. أعاد الكرة مرات عديدة ليتأكد أن عيني ذلك الجندي مفتوحتان على اتساعهما. ذُعر مما رآه وأراد أن يزعق بوجهه: لماذا لم تخبرني منذ البداية أنك حيّ؟! ولم يفعل.

وشيئاً فشيئاً، تحرر من ثقل الأقدام والأيدي والرؤوس المتراكمة فوقه، لكنه لم يجرؤ حتى على رفع رأسه ليرى ما يحدث من حوله. حيث النهوض الجماعي لمن كان يظنهم قتلى. حاول تصوير المشهد في مخيلته، مشهد أولئك الجنود وهم ينفضون عن ثيابهم التراب ويهمّون بالمغادرة برفقة منقذيهم. في حين يبقى هو في مكانه متردداً،

تأكله الحيرة ولا يعرف كيف يتصرف، هل يبقى نابتاً في مكانه كالصخرة أم ينهض ينصرف معهم؟

لكن، ماذا لو نهض معهم واتضح أنهم إيرانيون؟ فكّر حميد للمرة الأخيرة، لا بدّ أنهم سيأسرونه، هذا إن لم يقتلونه بداعي صعوبة نقل أسير مصاب. لهذا فضّل البقاء في مكانه، فإذا ثبت العكس وكانوا عراقيين وظنوه ميّتاً، فسيعودون لإخلائه بواسطة نقالة. وهو ما أمِل بتحققه في القريب العاجل، لكنه لم يتحقق إلا بعد مضي سنوات على هذا الحدث، فقد انتهت الحرب، وتبادل الطرفان المتناحران الأسرى. تبارى فريقهما الوطنيان بكرة القدم. ولم يسمع أحد بقصة الجندي حميد إلا بعد فترة طويلة، عندما انتشر خبراً عن نشوب خلاف جديد بين العراق وإيران حول عائدية هيكل عظميّ لجندي مجهول الهوية، كان قد اعترض طريق اللجنة الدولية لترسيم الحدود بين البلدين.



الذكرى السنوية

استيقظ محمود من نومه في صباح السادس عشر من نيسان، ارتدى ثيابه وغادر البيت. قطع المسافة إلى وسط البصرة راجلاً عبر شارع مالك بن دينار، وصولاً إلى الجسر على نهر العشار الذي عبره إلى تقاطع الطرق، حيث ينتصب هناك تمثال عتبة بن غزوان أول ولاة البصرة بعد الفتح الإسلامي للعراق. دخل بعدها إلى شارع الاستقلال، وراح يمشي على الرصيف المحاذي لقاعة التربية والإعدادية المركزية وفنادق الدرجة الثالثة، قبل أن يتوقف ليعبر الجادة إلى الجانب الآخر، لكنه ما أن وصل إلى المنتصف حتى تسمّر في مكانه، راح ينظر يميناً ويساراً، وبحجة التعثّر القى نفسه في الموضع الذي توقف فيه، وبدا كأنه يبحث هناك عن اثر لشيء ما لا احد يعرفه. وكما لو انه يجس نبض الشارع، وضع أذنه على الإسفلت الحار، علّه يسمع ذلك الصوت الذي يشبه صوت ارتطام تفاحة من الجنة بالأرض.

* * *

كان الوقت ما يزال مبكراً. هناك بعض الدكاكين المنتشرة على جانبي الشارع العريض بدأت تفتح أبوابها، وثمة سيارات بدأت بالتدفق من الجهة الشرقية متجهة إلى ساحة أم البروم. كانت تخطف مسرعة

وتتحاشى سحق محمود الذي لم يكن عابئاً بأصوات المنبهات وحركة المشاة التي بدأت تنشط على الرصيف، عمال، جنود، موظفون، طلاب، عتالون، اسكافيون، متسولون، ومجانين.

كان ملقى على وجهه في منتصف الشارع. حاول بعض المارة مساعدته على النهوض ظناً منهم أنه تعثّر حقاً أو أُغمي عليه. إلا أن أحداً منهم لم يستطع أن يحركه من مكانه، كما لو أنه ألصق نفسه على الأسفلت بغراء. فانصرفوا إلى شؤونهم، وجاء غيرهم بعد ساعة وحاولوا معه، لكنه واجههم بالعناد نفسه. كان يضع أذنه على الأرض الاسفلتية الصلبة والحارة ويحتضنها، ولا يبدو أنه سينهض في القريب العاجل.

* * *

مرّت ساعة أخرى وازداد الزحام في وقت الذروة بسبب محمود واستلقائه المريب في وسط الشارع. تعرقل سير المركبات والمارة، مما دفع شرطة المرور إلى التعامل معه كأيّ عائق من تلك العوائق التي عادة ما تربك حركة السير في الشوارع، فيضطرون إلى إزاحتها عن الطريق بواسطة رافعة. وهو ما فعلوه مع محمود. ربطوه بالأحزمة وتم رفعه وإلقاءه على الرصيف. مكث هناك طوال النهار وهو ينظر إلى الموضع الذي أزاحوه عنه بعينين ذاهلتين دامعتين. وإلى أن حلّ الغروب كان محمود في بيته. استلقى على سريره وغط في نوم عميق رأى فيه أحلاماً كثيرة. وفي صباح اليوم التالي عاد إلى نشاطه وحياته اليومية المعتادة، من دون استعادة حدث اليوم الماضي والتساؤل عما كان يفعله في وسط الشارع.

* * *

في نفس التاريخ من العام التالي، عاد محمود إلى شارع الاستقلال، وتوقف في منتصفه فجأة. لكنه لم يكن بحاجة هذه المرة إلى افتعال حجة التعثّر ليحتضن البقعة نفسها، إنما ترك جسده يتهاوى ليبدو في حينها كأنه أُغمي عليه. كان قد عزم أمره على عدم البقاء، وهو على هذا النحو ملتصقاً بقير الشارع، لأكثر من خمسة دقائق، يشم خلالها ذلك الموضع ويقبّله، ويضع أذنه على الإسفلت ليسمع ما لا يتناهى إلى أذني أحد غيره. لكنه التصق كالقرادة مرة أخرى، وأخذ يجهش بالبكاء. لم يشعر بأيدي المارة المواسية وهي تطبطب على ظهره وتحاول مساعدته على الوقوف، فقد كان منشغلاً بطقسه الغامض. وحين رفع رأسه بعد ساعة وراح ينظر حوله، اكتشف أنه محاط بمجموعة من عمال التنظيف الذين أزاحوه بالقوة. حملوه وألقوه في أقرب حاوية للأزبال. فبقي في داخلها إلى أن ثاب إلى رشده وغادر إلى بيته، ليعود في اليوم التالي إلى مزاولة أعماله وعيش حياته وكأن شيئاً من الذي حدث بالأمس لم يكن.

* * *

انتظر محمود عاماً آخر، حتى حان موعد الذكرى السنوية في اليوم نفسه. تأنق لهذه المناسبة جيداً، مشط شعره بعناية ورشّ عطراً، وبدا وهو يسلك الطريق إلى شارع الاستقلال كأنه ذاهب للقاء امرأة، وليس لإلقاء نفسه في وسط الشارع مثل المجنون، وهو الظن الذي عشّش في رؤوس الباعة وأصحاب الدكاكين والمارة الدائمين وشرطة المرور وعمال البلدية وسائقي السيارات.

لكن محمود لم يلبث في مكانه طويلاً، فقد تحلّق حوله عدة

أشخاص يرتدون صدريات بيض، انتشلوه وحملوه إلى المصحة، ليرقد هناك، بين المجانين وأصحاب اللوثات العقلية، عاماً آخر عاش خلاله دور المجنون، وحاول أن يقنع نفسه بذلك، لعله يجد من يبرر فعله حين ستحين الذكرى السنوية المجهولة، التي لا أحد يعرف مناسبتها، وماذا حدث فيها، ولماذا تدفعه لإلقاء نفسه في تلك البقعة من الشارع، فلا يتعرض له أحد ويمنعه من ممارسة طقسه الذي اعتاد عليه منذ ثلاثة أعوام، وألفى نفسه منقاداً إليه، مدفوعاً بتلك العاطفة والرغبة العجيبتين الملحّتين اللتين تجعلانه يقبّل الأرض ويشمها وينصت إليها، على النحو الذي جلب انتباه الناس، وجعل بعضهم يميلون إلى الاعتقاد بأن ثمة نبيّ أو ولي صالح وطئت قدماه ذلك الموضع.

* * *

حين خرج محمود من المصحة، لم يذهب إلى البيت، بل قادته قدماه، كالعادة في مثل هذا اليوم من كل عام، إلى شارع الاستقلال في وسط المدينة، ليتكرر المشهد التراجيدي الذي دأب على أدائه في السادس عشر من نيسان، بكاء، وشم، وتقبيل، وإنصات للأرض الإسفلتية. عندئذ، لم يشك أحداً، من الذين واكبوا الحدث طوال الأعوام الماضية، أن محمود مجنون فعلاً، باستثناء أفراد الشرطة الذين يتجولون في الجوار، فقد رأوا أن لا خلاص من هذا الرجل غريب الأطوار إلا بالحبس. فقيدوه، واقتادوه مخفوراً إلى المركز، وكانت تهمته إزعاج الناس وقطع الطريق والتسبب بالزحام.

قضى محمود عدة أيام في السجن قبل أن يُطلق سراحه ويعود إلى

طبيعته، فلا يلحظ عليه أحد أي علامة تدل على أنه الرجل نفسه الذي يأتي في يوم محدد من السنة ليهوى بكل ثقله على الأرض، في منتصف الشارع، تحت مرأى مسمع الناس هناك.

* * *

تمضي الدقائق، والساعات، الأسابيع والأشهر، ومحمود يعيش حياته كبقية الناس. لكن، ما أن يحين يوم السادس عشر من نيسان حتى يُجنّ الرجل، فيُهرع إلى موضعه الأثير والأحب إليه حتى من حضن أمه، ينهار عليه باكياً منتحباً وسط استغراب كل من يصادف وجوده أو مروره بذلك الشارع، فيرى كيف يتغيّر حاله ويشحب لونه، ويبدو كما لو أنه أُصيب بالفصام، لا يعرف أحد، حتى نفسه. كأنه يتصرف خارج الوعي، خارج الزمن، وكأن ليس ثمة مكان على سطح الأرض سوى تلك البقعة السحرية من شارع الاستقلال تصلح للاستلقاء والبكاء والشم والإنصات، مما دفع البعض إلى سؤاله عما إذا كان يسمع شيئاً في تلك الأثناء، حين يضع أذنه على القير الساخن. لكنه لا يجيبهم، يلوذ بالصمت فحسب، بعد أن يلقي عليهم نظراته الحائرة والناقعة بالدمع، ويعود بعدها إلى الإنصات، حتى يبدو كأن أحداً ما تحت الأرض يهمس في أذنه شيئاً سيظل مجهولاً طيلة الأعوام الطويلة اللاحقة، التي كان يقضي أيامها وهو في كامل قواه العقلية والبدنية، باستثناء يوم السادس عشر من كل عام، أما هذا اليوم فيقضيه في ممارسة جنونه وغرابة أطواره وحجّه المعتاد إلى شارع الاستقلال لاحتضان موضع المقدّس، والبدء بطقسه السنوي الذي يستمر به طوال ساعات، قبل أن يُقتلع من مكانه من قبل قوة من الطوارئ أو رجال الدفاع المدني. وقد يجد نفسه في سيارة

إسعاف أو في قفص مكافحة التسوّل، وحتى على إحدى عجلات ذوى الاحتياجات الخاصة.

* * *

حين بلغ محمود الخامسة والستين من العمر، وأصبح عجوزاً خائر القوى، حملته مجموعة من فاعلي الخير إلى دار العجزة.

في العام الذي تلاه، وقد أصبح أعمى، تكفل أولاد المدارس، الذين سبق وأن تعلموا من معلماتهم كيفية مساعدة العميان في عبور الشارع، بانتزاعه من موضعه ونقله إلى الجانب الآخر من الشارع.

وما يزال كذلك حتى انتهى به الأمر إلى المقبرة.

* * *

مات محمود ودُفن معه سره الذي لم يطلع عليه احد سوى رجل كان يرافق امرأة في أحد الأيام، ربما زوجته، أو حبيبته، أو خطيبته. وبينما هما يعبران الشارع، التوى كاحل المرأة ووقعت ارضاً، في الموضع نفسه، فجُرحت ركبتها، وسال الدم منها على الأرض. تناول الرجل يدها وأنهضها من المكان الذي وقعت فيه. كانت تتألم وتشعر بالخجل وتلعن حظها والحذاء ذو الكعب العالي الذي ترتديه. في حين كان الرجل، رغم أنه كان يتألم لأجلها، يكتم ضحكة لا إرادية وشيكة لم يطلقها إلا بعد أن غادرا الشارع. وكان قد قضى الليل في الفراش وهو يُقبّل ركبة المرأة وينفخ على الجرح.

* * *

لم يمض الكثير من الوقت على ذلك الحدث، حتى عاد الرجل، وكان وحيداً وحزيناً، محنيّ الظهر، وعلى وشك البكاء، ووقف في وسط الشارع، حيث وقعت امراته.

نظر يميناً وشمالاً، وبحجة التعثّر ألقى نفسه واحتضن الاسفلت.



حديقة الأرامل

«كتبك تلك أبصق عليها، فليس كل ما هو موجود، موجود في كتبك».

(زوربا ـ نيكوس كازنتزاكي)

كان آدم ذو الأعوام الأربعة عشر وحيد أمه الأرملة. كان يحب القراءة. يدّخر مصروفه، وأحياناً يسرق، ليوفّر ثمن الكتب التي تكرهها أمه وتعتبرها مصدر المجون. ولا تفرق بينها وبين المجلات الخليعة، تلك التي يتعاطاها الأولاد بعمره. وبالإضافة إلى ذلك، كانت تتمتع بحاسة شم كلبية، طالما مكنتها من العثور على الكتب التي يخفيها ابنها، فتسارع إلى إحراقها.

بدأ اهتمام آدم بالكتب منذ فترة مبكرة، عندما كان في الصف الخامس الابتدائي، فقد عثر في مكتبة المدرسة الصغيرة التي أنشأها معلم اللغة العربية، في وقت تكاد أن تنقرض ظاهرة المكتبات المدرسية في العراق، على كتاب صغير بغلاف رُسم عليه صرصار عملاق يجلس على سرير وينظر إلى ظله الآدمي بنظرة ذاهلة ومذعورة. وكان الكتاب عبارة عن رواية حملت عنواناً لافتاً أثار فضول الفتى الصغير: المسخ!

كان وجود تلك الرواية في المكتبة، بين قصص الصبيان والناشئة،

غريباً وشاذاً. مثل خروف بين الأرانب. عندما أراد آدم استعارتها، رفض المشرف على المكتبة ذلك، متذرعاً أن مثل هذه الكتب كالسموم، يجب أن تُحفظ بعيداً عن متناول الأطفال.

«لكني لست طفلاً!»

قال آدم بجسارة لم يعهدها المشرف من قبل. اعتبرها وقاحة منه، فدمغه على رأسه هازئاً:

«وماذا تحسب نفسك يا ولد! أن بلوغك العاشرة من عمرك يجعلك مؤهلاً لقراءة مثل هذه الأشياء المخيفة؟!»

كاد آدم أن يسأل المشرف عما يعنيه بـ« الأشياء المخيفة « لكنه فوجئ به وهو يخطف الكتاب من بين يديه، وينصحه بقراءة ألف ليلة وليلة:

«ستجد فيها من الفساء ما يملأ مؤخرتك أيها الشيطان الصغير!»

إلا أن آدم لم ييأس. استطاع أن يعثر على الكتاب، ويهربه إلى البيت خلسة. فبدأ القراءة في ساعة متأخرة من الليل. أذهله الاستهلال، فراح يتابع القراءة حتى أكمل الكتاب، وأعاد الكرة مرة ثانية وثالثة. بل أنه قضى الليل وهو مستلق على ظهره، يقرأ ويعيد القراءة، حتى كاد أن يحفظ الرواية عن ظهر قلب. لم يستطع النوم خلال ساعتين متبقيتين على موعد الذهاب إلى المدرسة، فراح يعد الصراصير بدلاً من الخراف. وعندما أراد النهوض لم يستطع.

في صباح اليوم التالي، حملت الأم الأرملة رواية كافكا وذهبت إلى مدرسة سامر. كانت غاضبة، وقد عزمت أمرها على صفع المشرف.

لكنها لم تفعل ذلك، إنما راحت توبخه بشدة، لأنه سمح لابنها باقتناء مثل هذا الكتاب. وكان المشرف يقف أمامها، مرتعداً، خائفاً بينما هو يسألها:

«هل تحول ابنك إلى صرصار؟!».

«ليس تماماً» ردت الأم الغاضبة الموشحة بالسواد، وقالت للمشرف بعد أن قذفت الرواية بوجهه: «لكنه كان بحاجة إلى من يقلبه على بطنه!».

منذ ذلك اليوم والأم الأرملة تمنع ابنها من إدخال الكتب، أيّاً كان محتواها، إلى البيت. فاضطر آدم إلى الاحتيال عليها وذلك بتهريب ما يحصل عليه من كتب إلى الداخل، وقراءتها خلسة، قبل أن تتناهى رائحة الورق والأفكار إلى خياشم تلك الأم الفطنة، وتبدأ حملتها بالبحث عن مصدر تلك الرائحة، فقد كانت تكافح وجود الكتب في بيتها كما تفعل ذلك مع الفئران والجرذان والوزغ، حتى تعثر عليها وتحرقها، لكي لا يعود آدم إلى اقتنائها مرة أخرى. لكن الولد كان عنيداً ولم يستسلم. استمر في حربه مع أمه ولم ييأس بسهولة. راح يبتدع ألاعيب جديدة من أجل تهريب الكتب البيت وتأسيس مكتبة خاصة به.

في أحد الأيام، ابتاع آدم رواية واستطاع أن يدخلها إلى البيت، بعد أن استبدل غلافها بغلاف كتاب دينيّ. لهذا، عندما رأته الأم لم تعترض. قالت له:

«هذا أفضل من قراءة كتب المهرطقين!».

وما أن بدأ بقراءتها ليلاً حتى شعر بالخوف. لكنه هذه المرة لم يخف

من نيران الأم الكارهة للكتب، بقدر ما خشي على أمه نفسها من ذلك الكتاب. أحس بالذعر وهو يتخيلها في أوضاع شاذة بين ذراعي رجل غريب، أمّي، لا يعترف مثلها بالكتب ويسخر منها. لم يحتمل فكرة وجود مثل هذا الشخص في البيت نفسه، وقد أشعرته تلك التخيلات المعيبة والكئيبة بالغثيان، فقرر التخلص من الرواية. لكنه رأى أن يخبئها أولاً، لكي لا تعثر أمه عليها فتحدث الكارثة، وإلى أن يحين الصباح سيودعها في مكتبة عامة أو ربما يعيرها إلى صديق. فكّر بأكثر الأماكن التي لا تثير ريبة المرأة الأرملة، فلم يجد سوى طريقة واحدة هي الدفن.

هرع إلى الحديقة، تناول رفشاً وحفر بين أوراق الريحان المزروعة حفرة صغيرة لكنها عميقة، وضع الرواية فيها وأهال عليها التراب. سوّى التربة جيداً وغرس سيقان الريحان فوقها من أجل التظليل. وهكذا، اطمأن آدم أن أحداً لن يعثر على الرواية أبداً. لكنه لم يستطع إخراجها من مخبئها في اليوم التالي، خشية أن يُكتشف الأمر من قبل الأم التي لم تخرج من البيت في ذلك اليوم ولا في الأيام التي تلته. كان يتفقد الموضع الذي دفن فيه الرواية فحسب، يفعل ذلك بذريعة الاهتمام بالحديقة، الأمر الذي كاد أن يثير شكوك الأم، لولا أنه كف عنه في النهاية، وقرر أن يتخلى عن الرواية ويتركها في قبرها، فالكتب هي الأخرى تتعفن وتنخرها الأرضة وتُسوى مع التراب.

بعد مضي ثلاثة أسابيع، تذكّر آدم تلك الرواية. كان على وشك الخروج من البيت عندما خطر له إلقاء نظرة على الحديقة. عندئذ، لاحظ أن ثمة فطر غريب أشبه بإبهام مقطوع قد نما في المكان الذي دفنها فيه. اقترب منه، انحنى لكي يتفقده عن قرب، وما أن امتدت يده إليه لتقتله

حتى جاء صوت الأم من نافذة المطبخ المطلة على الحديقة مجلجلاً في أذنيه:

«ابتعد عن فطري يا ولد!».

«فطر!» قفز آدم مفزوعاً، متسائلاً عما يفعله مثل هذا الفطر الطفيلي القبيح في حديقة بيتهم، ومنذ متى تهتم أمه به، وتبدو مستميتة بالدفاع عنه إلى الحد الذي خيّل إليه أنها قالت، حين أمرته بالابتعاد عنه، رَجُلي بدلاً من فطري.

كان نمو ذلك الفطر يزداد يوماً إثر يوم، ويزداد معه اهتمام الأم الأرملة التي أبدت حرصاً غريباً ومفرطاً في سبيل رعايته وحمايته والحفاظ عليه، حتى بدأ يكبر ويعلو وتصبح له قامة. نمت له يدان وقدمان، وتشكّل رأسه، ونبت شعره، وظهرت ملامح وجهه على نحو سحري لا يتوفر إلا في القصص. بدأت الحياة تدب فيه، وصار يحرك أطرافه بمرور الوقت، ويلتفت برأسه يميناً وشمالاً مردداً كلمات باليونانية لم يفهمها آدم الذي اقترب منه، ومدّ يده إليه ليلمسه بأصابعه، ثم جرّب أن يعضّه ليتأكد إن كان من لحمٍ أو فطر، لكن ذلك الكائن الغريب منعه من فعل ذلك قائلاً:

«عندما يصبح الإنسان بلا أسنان يسهل عليه أن يقول: من العار أن تعضّوا أيها الرفاق».

ذُهل آدم بينما هو يسمع ذلك، قبل أن يُفاجئه صوت أمه الغاضبة:

«ابتعد عن رَجُلي يا ولد!».

«حسناً.. الآن صار رجلها وليس فطرها!» قال آدم في نفسه والتفت

وراءه، حيث أمه الأرملة تحمل مِنشّة، وكانت تهدده بها وتتوعد بسحقه مثل ذبابة إن لم يبتعد عن الرجل الذي، كما لو أنه وقع من السماء على إيقاع آلة السانتوري التي يحملها، راح يرقص رقصة غريبة، قافزاً إلى الأعلى، ناشراً ذراعيه مثل نورس على وشك الطيران.

انصرف الرجل ذو الإبهام المقطوع، عازف السانتوري، مع المرأة الأرملة إلى مخدعها في داخل البيت، وكل واحد منهما يتأبط ذراع الآخر. في حين ظلّ آدم يغلي بغيضه، لا يعرف ماذا يفعل، فقد وقع المحذور، وعلى ما يبدو أن أمه صارت مستعدة لأن تقتل وتريق الدماء في سبيل رجلها الجديد، الذي انبثق من أحد الكتب الملعونة، تلك الرواية التي جلبت له العار، فصار في إثرها يعضّ أصابع الندم.

وها هو الآن يفكر بطريقة تساعده على التخلص من زوربا اليوناني، الذي يكره الكتب ولا يروقه سوى النوم مع النساء الأرامل. فكّر باقتحام مخدع أمه وطعنه بسكين، لكنه كان أجبن من أن يفعل شيء كهذا، فزوربا هذا داهية، ومقاتل عتيد، خاض الحروب الشرسة وعرك الحياة بأضراسه، ولا يظن أن صبياً هزيلاً مثله سيكون قادراً على التغلب عليه، حتى وإن حاول أن يفعل ذلك غيلة وهو نائم، فلا بد أنه سيظفر به، ويعامله كطفل مغفل، وذلك بضربه على مؤخرته بعصا، قبل أن يركله إلى خارج البيت.

كذلك، خاف آدم من الفضيحة، إذ سرعان ما سينتشر الخبر ويُصبح اسم أمه علكة تلوك بها الأسنان في كل مكان، فكبح غيضه، ولعق جرحه، وكتم السرّ.

السرّ الذي لم تحافظ عليه الأم الأرملة. فالنساء الثرثارات مثلها كالطيور عندما تزن على خراب أعشاشها. فقد وشوشت به لإحدى صديقاتها، وكانت أرملة أيضاً. فوشت هذه السر لباقي النساء الأرامل في الحي، وما أكثرهنّ في ظل الحروب المتعاقبة.

وفي غضون أيام، تحولت حديقة البيت إلى مساحة تغص بالنساء الأرامل المتجلببات بالسواد.

حين رأى آدم هذا المشهد تأفف متذمراً:

«يا إلهي!

كم زوربا نحتاج لحديقة سوداء من الأرامل؟!».



الذراع

فلينزل النعاس في عينيكِ
وفي فؤادك السكينة
وليتني كنت النعاس والسكينة.

(شكسبير ـ روميو وجوليت)

من السياج إلى شجرة السدر، ومنها عبر النافذة، استطاع حازم التسلل إلى غرف حياة في ليلة من ليالي نيسان الدافئة. وجدها نائمة على جنبها فوق السرير الخشبي، وقد دسّت يدها اليمنى تحت الوسادة، وكانت تلك عادتها منذ الصغر، كما لو أنها تريد بذلك الإمساك بأحد أحلامها ومنعه من الطيران مع ريش تلك الوسادة.

انحنى فوقها ليطال بأصابعه خصلة من شعرها كانت تعبث بها، وهي تفكر به، قبل أن يدركها النعاس وتنام. أزاحها عن إحدى عينيها، وجثى على ركبتيه بإزائها، راح يتأمل وجهها تحت ضوء شمعة وضعت على دولاب صغير بجانب السرير. قبّل أرنبة أنفها، ذلك الأنف الذي طالما تغزل بها قائلاً أن الله خلقه من شمّ حواء لورود الجنّة، فأجفلت هي للحظة وفتحت عينيها. وما أن تراءى لها وجهه حتى سارعت إلى

معانقته. ثم طبطبت بيدها على المكان الفارغ على السرير، فقفز هو كهرّ سعيد واستلقى إلى جوارها، فاسحاً لها المجال بتوسّد ذراعه.

وبينما هو يحدثها همساً، وقد لا يحدث ذلك كثيراً، نامت حياة.

لم يعرف حازم أن حبيبته أغفت إلا بعد انقضاء نصف ساعة، كان قد همس خلالها في أذنيها الكثير من كلمات الحب، التي اعتاد أن يقولها كلما سنحت الفرصة واستطاع التسلل إلى غرفتها بتلك الطريقة التي لا تحدث إلا في مسرحيات شكسبير. وكانت هي تحب الإصغاء إليه، ولا تقاطعه أبداً، بل تلتزم الصمت بينما هو يردد تلك الكلمات التي يقتبسها من دواوين الشعراء، فتشعر في حينها كما لو أنها غلت في صدره طوال النهار ونضجت، قبل أن يقولها. لهذا لم يشعر أنها نامت في تلك الأثناء.

مضت نصف ساعة أخرى، وحان موعد انصرافه، إلا أن حازم لم يشأ إيقاظ حبيبته.

قال مع نفسه:

«ما زال هناك متسع من الوقت.. لن أزعجها».

كان يدس يده الأخرى تحت رأسه، ويحدق إلى الأعلى بنظرة متأملة، متفائلة، فيبدو في حينها كما لو أنه على وشك اختراق السقف بتلك النظرة الساهمة، ورؤية ما يليه، حيث السماء الشاسعة هناك، أو لعله القمر، قمر نيسان الذي يشبه وجه حياة النائمة بوداعة، أو هكذا يبدو في عينيه على الأقل، فعين الرضا لا ترى عيباً، كما يقول كاسياس في يوليوس قيصر.

«تُرى، بماذا تحلم؟»

تساءل حازم، وود لو يلج في حلم حبيبته ويحرسه من مداهمة الكوابيس. أحس بفرح طفولي لم يشعر به منذ أن كان طفلاً صغيراً يلوذ بحضن أمه، وعدّ تلك الساعة من أجمل الأوقات التي قضاها برفقة حياة، تمنى لو تمتد إلى أبعد من كونها ساعة من ستين دقيقة، إلى أيام وأشهر وأعوام. لكنه كان يدرك أن لا شيء من ذلك سيحصل، ولا بد أن يغادر في النهاية.

مضت ساعة أخرى وحياة ما زالت نائمة بوداعة، وثمة ابتسامة كزهرة تفتحت على شفتيها هنا، بدأت ذراع حازم تؤلمه، لكن لا يبدو أنه سيوقظها. كان يرى أن نوم حبيبته على ذراعه فرصة لن تتكرر، وحتى لو تكررت فلن تمتد لأطول من هذا الوقت. استأنس بذلك، نسي ألمه وآثر البقاء لساعة إضافية. فالشباك مفتوح والشجرة ما زالت في مكانها، والطريق سالكة إلى الأسفل، ويستطيع النفاذ في أي لحظة يشعر فيها بالخطر، رغم أن ثمة وقع لأقدام أحدهم صار بالإمكان سماعه من وراء باب الغرفة الموصد بالمفتاح. وهو التهديد الذي توجس حازم منه في البداية، قبل أن يزول بزوال وقع الأقدام، ويعود كل شيء إلى سكونه المعتاد، إذ لم يعد يُسمع حينئذ سوى أنفاس حياة، شهيقها وزفيرها اللذين يترددان بدعة وهدوء.

استمر وضع العاشقان على ما هو عليه حتى الفجر، عندما بدأ حازم يشعر بالإرهاق ويفقد الإحساس بذراعه. وعلى الرغم من ذلك، لم يحبذ إيقاظ حياة، فربما تلاشى حلمها وأشعرها ذلك بالحزن. ففضّل البقاء لبعض الوقت، ما دام أن أحداً لم يقتحم خلوتهما حتى ذلك الحين، فعسى ولعل تستيقظ من تلقاء نفسها قبل شروق الشمس. كان

مستمتعاً بإيثاره، ملتذاً بألمه وخدر ذراعه وتنميلها الموجع. كان يفكر أو يتخيل إلى أي حدّ سيكون ذلك مدعاة للتفاخر فيما بعد، حين سيتزوجان وينجبان ويرويان لأولادهما تفاصيل تلك الليلة التاريخية والمأثرة الرومانتيكية العظيمة.

فكر حازم بإراحة عينيه لدقائق، فأغمضهما وأغفى. لم يخطر له أن الدقائق في مثل هذه الحالة ربما تمتدّ إلى ساعات. لقد حدث ذلك معه أمراراً عديدة. كان يستيقظ من النوم ليذهب إلى الجامعة وفي عينيه بقايا نعاس يظن أن عدة دقائق إضافية من النوم ستكون كافية لتبديدها، لكنه دائماً ما يستيقظ بعد ساعات. وهذا هو ما حصل معه تماماً في غرفة حياة، عندما وقع في الفخ نفسه، واستغرق بالنوم، ليستفيق بعدها على طرق أحدهم الباب.

كانت الشمس قد أشرقت، لهذا لم يشك أن الطارق هي أم حياة، جاءت توقظها لكي تذهب إلى الجامعة. وكان من المفترض أن يسمع صوتها وهي تنادي على ابنتها من وراء الباب، وتوبّخها على تأخرها في النوم كالعادة. إلا أن شيئاً من هذا لم يحدث. لم تتفوّه المرأة بكلمة واحدة تدلّ على أنها جاءت من أجل هذا الغرض. كانت تطرق. تطرق فحسب، من دون أن يفعل طرقها المتواصل فعله ويوقظ حياة التي كانت ما تزال ملتصقة بذراعه، مستغرقة في نومها العميق. حتى أنها لم تتحرك من مكانها، أو تحاول أن تغيّر من وضعها أثناء النوم.

حاول حازم تحريك أصابع يده، لكنه لم يستطع. لقد فقد الإحساس بتلك اليد تقريباً، كما لو أن الدم تخثّر في عروقها وشلّ حركتها.

استمر الطرق، الأنثوي، الأمومي، لأكثر من عشر دقائق، قبل أن يتوقف. ويعود السكون إلى الغرفة. ذلك السكون المريب، الباعث على القلق، الذي دائماً ما يخيم على بيوت الأشباح. حرّك حازم يده الأخرى. كان على وشك أن يلامس شعر حياة، التي ما زالت تنعم بنومها العميق، والهادئ، لكنه، كالعادة، خشي أن يُفزع حلماً ربما كانت تحلم به وقتها، فعدل عن ذلك، غير عابئ بذراعه المتصلبة، التي يبدو أنها فقدت قدرتها على الحركة بشكل فعلي.

أحسّ بتسارع ضربات قلبه، وتساءل عما إذا كان خائفاً، أو أن ضغط الدم في شرايينه ارتفع خلال الدقائق العشر الماضية، وتسبب له بكل هذا الاضطراب الداخلي العنيف. كره انطباعه الأول بشأن ما انتابه بينما هو يسمع الطرق على الباب، فهو لا يخاف، وطالما جازف قبل هذه المرة، ولم يشعر يوماً أنه خائف، وسيستمر في خوض هذه المغامرة حتى تستيقظ حياة. هكذا قرر حازم، فلا بد أن تستيقظ حبيبته، لا يعقل أن تنام إلى الأبد. ستنهض وتتمطى مثل لبؤة أخذت كفايتها من النوم، تلتفت إليه وتبتسم ثن تقبّله، وتسأله عن الوقت، وحين تعرف كم تأخرت في النهوض تقفز من السرير مثل قطّة مذعورة لترتدي ثيابها على وجه السرعة، وتهرع إلى الجامعة. لكنه سيخبرها أن الأوان قد فات على ذلك كثيراً، وأن الوقت يقترب من منتصف النهار.

و فعلاً، تناهت دقات الساعة الجدارية في الأسفل إلى أذني حازم. إنها الثانية عشرة ظهراً، وحياة ما زالت نائمة.

سمع خطوات على الدرج الصاعد إلى الأعلى، فازدادت ضربات

قلبه على نحو خال معه أن مضخة الدم والمشاعر تلك على وشك الانفجار.

«نعم.. أنا خائف!» اعترف حازم، ثم استدرك ذلك بقوله مع نفسه: «خائف عليها».

لكنه، رغم ذلك، ما زال عازماً على عدم إيقاظها، حتى وهو يسمع اليد التي بدأت تطرق الباب حينذاك، بتشنّج وتعنيف هذه المرة، لم يخطر له أن يهزها، أو يطبطب على خدّيها، أو يرش وجهها من ماء القدح الموضوع على طاولة صغيرة بجانب السرير حتى تستفيق ويبدأ بتقريعها بقوله:

«هيا انهضي يا عزيزتي.. كفى نوماً لهذا اليوم.. لقد انتهت السهرة منذ وقت طويل، وها نحن على وشك أن نُقتل!».

لم يفعل حازم ذلك. لم يجرؤ على انتهاك حلمها وإزعاج نومها حتى لو اضطرّ إلى دفع حياته ثمناً لأجل ذلك. راح يترقب، منصتاً إلى الطرق المستمر على الباب، منتظراً أن ينادي الطارق باسم حياة، ويؤنبها على كسلها وبقاءها نائمة حتى وقت متأخر، أو ربما يدعوها إلى النزول لتناول طعام الغذاء، فلا بدّ أنها جائعة، ولم تأكل شيئاً منذ عشاء الليلة الماضية. لقد خمّن حازم أن الطارق ربما يكون والدها، يبدو ذلك من خلال الطرق ذو الطابع الرجولي، القاسي والخشن. على العكس من الطرق الذي كان قد سمعه صباحاً، كان طرقاً ناعماً وخفيفاً بأطراف الأصابع، استشفّ منه أن الطارق هي أم حياة. حياة التي بقيت مستمرة، بتصميم عجيب، في نومها العميق وسباتها اللا متناهي لثلاثة أيام، لم يفلح في

إيقاظها شيء، بما في ذلك الطرق المتواصل، المتفاوت، حسب جنس الطارق وطباعه ودرجة قرابته منها ومدى رغبته في إيقاظها من عدمه.

وكان حازم يعتمد على حدسه، طوال الأيام الثلاثة الماضية، في تحديد هوية الطارق، يفعل ذلك من خلال تصنيف نوع الطرق الذي يسمعه في كل مرة يأتي أحدهم لإيقاظ حياة. فكان يعرف شقيقها الصغير من طرقاته الناعمة التي بالكاد تُسمع. ويعرف جدتها من طرقاتها الرفيقة الواهنة. ويعرف من الطرقات الغاضبة، الطائشة، أن ثمة أخ مرتاب، مستفز مثل ثور، يقف وراء الباب في ذلك الحين ويتساءل مع نفسه: تُرى ماذا دهى هذه الفتاة؟!

إلا أن أحداً لم يفكر بأن ينادي على حياة. لاذ الجميع بالصمت، وكأنهم أصيبوا بالصمم، وأصبحوا لا يجيدون فعل شيء في هذه الحياة سوى الطرق على باب حياة النائمة.

وبالتزامن مع نهاية اليوم الثالث، عند منتصف الليل، بدأت الرائحة تفوح من جسد حياة. كانت رائحة زنخة أزكمت أنف حازم الذي ما زال مصرّا على عدم إيقاظها. زعم أن ما صار يشمه من تلك الرائحة الكريهة، رائحة التحلل المرعب، ليست سوى رائحة عطور، مسك، ريحان، أو ربما ياسمين. فمثل حياة، وهذا ما كان يؤكد عليه مراراً، لا يمكن أن تنبعث منها سوى رائحة الورود. فأنف الرضا هو الآخر لا يشمّ سوى الروائح الطيبة، حتى وإن كانت تنبعث من جثة متفسخة. لم يزعجه انتفاخ جسدها وازرقاقه فيما بعد. ربما أرعبه في البداية أن ثمة ديدان كريهة بدأت تخرج من تحت جلدها، لكنه اعتاد على ذلك

بمرور الوقت، حتى بدأ لحمها بالترهل والجفاف، وأصبحت أشبه بمومياء، جلد على عظم.

لكن حازم لم يضجر ولم يتذمر. لم تشعره عملية التفسخ الرهيبة تلك بالغثيان، أو أنه افترض ذلك وأقنع به نفسه. فقد أحبها لذاتها، وعشق روحها وكينونتها. لهذا، لا يبدو عابئاً حتى وإن استحالت تلك الحبيبة إلى هيكل عظمي بليد. وهو ما حصل في النهاية.

و كان حازم، قبل سنوات طويلة، كلما أراد أن يلمس حبيبته، أو يداعب شعرها، أو حتى يهمس لها: أحبكِ! يعدل عن فكرته.

كان يخشى، إذا ما فعل ذلك، أن يزعج نومها ويتسبب ذلك بتلاشي حلمها.

أما الآن، بعد أن تلاشى حلمها، وتحجّر في مكان ما من المجهول، صار يخشى على عظامها أن تنهار.

فلبث في مكانه، لا يفعل شيء سوى الإصغاء إلى أيدي الزمن وهي تطرق باب غرفة حياة، أو ربما باب تابوتها، أو قبرها الموصد إلى الأبد.

الشاعر والصمت

ارتقى الشاعر الستيني المنصة، أنزل النظارة تحت عينيه، وألقى نظرة جاحظة ومتجهمة على الجمهور الصامت والمترقِّب، الذي غصّت به القاعة. عدّل هندامه، تحمحم قليلاً ثم قال:

«قصيدتي بعنوان الصمت!».

توقف بعدها عن الكلام، رفع كم سترته الأيسر وراح ينظر إلى ساعته. وبعد انقضاء ثلاثين ثانية قال:

«وشكراً!».

نزل من المنصة، وسط ذهول الحضور وتصفيقهم وصفيرهم. بعضهم راح يطبطب على كتفيه مشجعاً، في حين أطرى عليه البعض الآخر بكلمات التعظيم والتفخيم: عبقري، مذهل، رهيف، مبدع، عظيم، هائل، كبير. وصفوه بالشاعر القدير، الألمعي، المخضرم. حتى أنه سمع أحدهم يطالب بأن يقام له تمثال بجوار تمثال بدر شاكر السياب على ضفة شط البصرة. كان يظن أن كل ذلك يحدث من باب السخرية، وما هي إلا دقائق، حتى ضجّت القاعة باللغط، وصار الكل يتحدث عن تلك القصيدة العجيبة. فأحس الشاعر العجوز، بينما هو يتلمس طريقه وسط

الحشود، بخيلاء ديك نكح دجاجاته العشر للتو وخرج ليستعرض على هوائي التلفاز، شامخاً بعرفه، نافشاً ريشه من الشبع والسعادة.

وبينا هو كذلك، وإذا بأحد المحررين الثقافيين اللجوجين يعترض طريقه، ويطلب منه إعطاءه القصيدة التي ألقاها، لينشرها في جريدته. عندئذ، انتابت الشاعر فرحة طفولية غامرة، فهذه هي المرة الأولى التي يطلب منه أحدهم قصيدة لنشرها، هو الذي طالما شعر باللا جدوى من وقوفه لسنوات عديدة على أبواب مكاتب الصحف من أجل نشر إحدى قصائده. ولم يمضِ المزيد من الوقت، حتى أحاط به محررو الصفحات الثقافية الآخرون، وشرعوا بالتودد إليه لكي يحصلوا على نسخة من قصيدته الصمّاء. لكنه كان يعرف إلى أي حدٍ سيكون الموقف مضحكاً وكاريكاتورياً إذا ما أعاد مشهد الصمت الذي افتعله على المنصة. فأنّب نفسه قائلاً في سرّه:

«حسناً.. هذا ما لم أفكر به!».

وكما لو أن ثمة صمت يقبع هناك، دس الشاعر العجوز يديه في جيوبه، وراح يفتّش فيها، لكنه لم يجد سوى الثقوب التي طالما عبّرت عن إفلاسه المزمن وفقره المدقع.

وسط كل هذا الضجيج، استطاع الشاعر أن يستل نفسه من بين الأجساد المتعرقة والأيدي الممدودة التي كادت تخنقه. فعل ذلك بصعوبة وغادر القاعة مسرعاً إلى البيت، وكل ظنه أنه تخلّص من تلك الورطة. لكنه اكتشف في منتصف الطريق، حين التفت وراءه، أن جيشاً من الصحفيين يتبعونه، لاهثين كعادتهم خلف كل شاردة وواردة،

يسألون عن اللقيط من هو أبوه، وكانوا يتدافعون فيما بينهم من أجل الحصول على السبق الصحفي، فقد ذاع صيت القصيدة الصمّاء ووصل الى أبعد مما كان يطمح إليه طوال عمره الفائت، وهو مكتب أحد محرري الصحف الأجلاف.

ومرة أخرى، استطاع الشاعر الستيني التملّص من أولئك الصحفيين المزعجين، ووصل إلى بيته بشق الأنفس. وجد زوجته بانتظاره هناك، وقد تورّد وجهها وتلاشت منه صفرة الفقر وشظف العيش. عانقته قائلة:

«سنصبح أغنياء، أليس كذلك يا زوجي العزيز؟».

لم يجد الشاعر ما يرد به على تلك الزوجة، التي كانت قد سمعت عبر المذياع أن شاعراً ابتدع قصيدة عظيمة لم يسبقه إليها أحد، وصارت تعلم الآن أن صاحب هذه الدرّة الشعرية العظيمة هو زوجها.

«أرجو ألّا تنكر يا زوجي الحبيب» قالت له: «أعرف أنك كتبت تلك القصيدة التي ستدر علينا الكثير من المال. سمعت ذلك في الأخبار».

«لكني لم أكتبها يا امرأة!» قال لها الشاعر بنبرة يائسة ومحبطة: «أنا صمتّ فحسب.. صمتّ!».

وحين لم تفهم المرأة ما قاله، مثّل المشهد نفسه الذي سبق وأن أداه على المنصة، فعلمت أن لا خير يرتجى من تلك القصيدة، وراحت تندب حظها لأنها تزوجت من شاعر فاشل ومعدم مثله، وليس بقالاً أو حداداً أو حتى عامل تنظيف.

لم ينم الشاعر المسكين في تلك الليلة. كان يتقلب في فراشه كسمكة

على اليابسة، ويلوم نفسه، ويلعن الفكرة التي قادته إلى الوقوع في هذا المأزق. ولم يزل كذلك حتى أشرقت شمس اليوم التالي، فارتدى ثيابه وخرج من البيت ليُفاجأ بمجموعة كبيرة من الناشرين والعاملين في مجال الاستثمار الثقافي والفني. هكذا تكالبت على الشاعر عشرات العروض من قبل دور النشر لطباعة قصيدته الصمّاء وتسويقها. في حين أبدى العديد من أرباب المسارح رغبتهم في تمثيلها على خشبة المسرح، فضلاً عن شركات الانتاج الفني التي سعت بشدة إلى الحصول على حقوق تحويلها إلى قصيدة مغناة.

لم يجد الشاعر وهو يتلقى كل تلك العروض سوى أن يحك رأسه ويطلب مهلة كافية للتفكير واختيار الأنسب له. وما أن انصرف الجميع حتى دخل إلى البيت وبدأ بالضحك. راح يقهقه بعلوّ صوته، ولم يكن يعرف في حينها ممن وعلى من يضحك، على نفسه أم على هؤلاء الحمقى الذين يريدون طباعة الصمت في كتب، وتحويله إلى مسرحيات وقصائد مغناة.

«ومن يعلم» قال وهو يضرب على فخذيه ويضحك: «ربما يأتي أحدهم غداً ويعلن عن رغبته بشراء حقوق تحويل الصمت إلى السينما!».

وكما لو أنه لم يفعل ذلك منذ سنوات، استمر الشاعر العجوز بالضحك، فظنت الزوجة أنه جُنَّ. ضبت ثيابها في بقشة وغادرت البيت مسرعة، في وقت كان زوجها الشاعر قد انتقل من الضحك إلى البكاء، ومن البكاء إلى الصمت. قضى النهار وهو على هذا الحال، مستلقٍ على سريره في غرفة النوم، محدقاً بالسقف، بعينين غائرتين بالكاد ترمشان. كان يفكر بحل لمعضلته عندما سمع جلبة في ساعة متأخرة من الليل.

لكنه لم يتحرك من مكانه. وحين ازدادت الجلبة ظن أن ثمة لص يحاول فتح الباب. فقال مع نفسه:

«هذا ما كان ينقصني!».

وكان حدسه في مكانه، فها هو الآن يسمع خطوات ذلك اللص تقترب، وإلى أن رفع رأسه كان باب الغرفة قد فُتح على مهل وأطل من وراءه رأس ألبسه صاحبه جورباً نسائياً شفافاً. ولكي يوفر عليه عناء البحث عن شيء ذي قيمة، قال الشاعر للص:

«عزيزي اللص، أرجو ألا تتعب نفسك، فليس ثمة شيء في هذا البيت يستحق السرقة. اذهب إلى حال سبيلك أو أبلغ عنك الشرطة».

وفعلاً، أغلق اللص الباب وغادر. لكنه سرعان ما عاد ليطل برأسه من جديد قائلاً:

«أنا أعرف أنكم، معشر الشعراء، كذابين. لهذا، أنصحك بأن تصدق معي، افعلها لمرة واحدة في حياتك وأخبرني عن مكان القصيدة».

فقال الشاعر، وقد اصطنع قهقهة ضئيلة أراد منها السخرية:

«وإن لم أعطك إياها؟»

«حسناً» رد اللص بعد أن دخل إلى الغرفة وأوصد الباب خلفه: «سأنتزعها منك بالقوة»

فقال الشاعر:

«فليكن، أمامك ثلاثين ثانية لتنتزعها. تفضل.. هاك!».

اقترب اللص من الشاعر الذي ما زال مستلق على فراشه، وقف على مقربة منه وقال بلهجة تهديد ووعيد:

«لا تتذاكى عليَّ أيها الشاعر العجوز، كل العالم يتحدث عن قصيدتك العظيمة، وإن لم تخبرني أين تخبئها، سأغمد سكيني هذه في خاصرتك!».

«نعم» رفع الشاعر رأسه قائلاً: «وهكذا لن تحصل على شيء!».

«هكذا إذن؟» أردف اللص بعد أن جلس على طرف السرير، عند قدمي الشاعر، وقال بنبرة محبطة ومليئة بالخيبة: «يبدو أنك في ورطة يا صديقي الشاعر».

إلا أن الشاعر لم يقل شيئاً. فقد شبك أصابع يديه على صدره، وعاد ليحدق بالسقف، قبل أن يغلق عينيه ويغفو. رأى نفسه في المنام على شاشة تلفاز وهو يمثّل مشهد المنصة في أحد الأفلام الصامتة. كان فيلماً قديماً من زمن الأبيض والأسود، وكانِ هو يرتدي ثياب وقبعة شارلي شابلن، وبعد أن انتهى المشهد انهال عليه الجمهور بالأحذية والطماطم والبيض الفاسد.

استيقظ الشاعر من حلمه فزعاً، متعرقاً وينادي على زوجته. تذكر أنها غادرت البيت، وأن ثمة لص يحمل سكيناً كان معه في الغرفة. افترض أنه رأى حلمين في الوقت نفسه، وحاول النهوض لكنه لم يستطع. ألفى نفسه وحيداً مع الصمت المطبق من حوله، الكثير من الصمت الذي لم يستطع أن يعبّ منه ورقة صغيرة كان بإمكانها أن تجعل منه ثرياً وسعيداً بقية حياته.

عندئذ، لفظ الشاعر أنفاسه ومات.

مات بصمت.

العش

تنهض هالة في وقت مبكر من صباح كل يوم جمعة، تتناول فطورها، تمشط شعرها بينما هي تستمع إلى أغاني فيروز الصباحية، ثم تعقصه على شكل عشّ، وتخرج إلى الحديقة، التي تقع بين شارعين، عمومي وخدمي، في البصرة.

بعد نصف ساعة من المشي تصل هالة إلى الحديقة التي تزدحم بمحبي القراءة والباعة الذين يعرضون، على بسطاتهم، مختلف أنواع الكتب، من قصص الأطفال إلى كتب الطبخ والتنجيم. تشتري كتاباً، غالباً ما يكون كتاباً، وتجلس على أحد المقاعد الخشبية هناك، لتقرأ قليلاً قبل أن تعود إلى البيت. لا أحد يكلمها. لا أحد يغازلها، أو يحاول عقد صفقة حب معها، أو يكلمها عن مشروع زواج. ولا يكاد ينظر إليها أحد، عدا رجل غريب الأطوار، يجلس أمامها، في الجهة المقابلة. تتجمع العصافير من حوله، تحط على كتفيه، ورأسه، ويديه، وذراعيه، في ألفة حميمة.

ولا تعلم هالة إن كان هناك أحد غيرها يرى ما تراه، إذ لا يبدو منظر الرجل المأهول بالعصافير مثاراً لانتباه الآخرين من أولئك الذين يترددون على المكان من نساء ورجال وأطفال. افترضت أنه أحد الأوهام التي

دائماً ما تراود مخيلتها، أو شخصية ورقية قرأتها يوماً في كتاب وبقيت عالقة في ذهنها، وها هي الآن تستعيدها متخيلة في شارع الكتب. وهو أمر لم تشك هالة في مدى صحته منذ أن رأت الرجل أول مرة. فقد سبق وأن تأثرت بعدد من شخصيات وأبطال القصص التي قرأتها، ورأتهم في أحلامها، وتخيلتهم في الواقع على مقربة منها مثل الملاك في قصة ماركيز رجل عجوز بجناحين كبيرين الذي تصورته وهو يتحرك ويئن في باحة المنزل. والزوجان العجوزان في قصة الرحلة لخوليو كورتاثار اللذان تخيلت أنهما يطرقان باب غرفتها ليسألانها عن المدينة التي يعتزمان الذهاب إليها ونسياها. وماركو فالدو في قصص كالفينو، والذي ظنت يوماً أنه هو نفسه رجب الطيب أحد سكان الحي، وكان رجلاً سيء الحظ، يصطاد الأحذية بدلاً من السمك، وحين اصطاد سمكة في أحد الأيام كانت أسرته قد اعتادت على الأحذية، فطردته زوجته قائلة:

«سمكة؟ اصطدت لنا سمكة؟!».

حاولت هالة أن تتذكر أين رأت مشهد رجل العصافير هذا ومتى. الأحرى أنها أرادت تذكر أين قرأته.

«في قصة؟» سألت نفسها وهي تحاول ألا تحيد بنظرها عنه: «في رواية؟ أم في مسرحية؟ أو.. ربما في فيلم؟».

نهضت من مكانها واتجهت نحوه بخطوات مرتبكة. وبخجل واضح سألته:

«عفواً.. هل أعرفك؟».

لكن الرجل لم يرد عليها بكلمة واحدة. كان ينظر إلى رأسها حيث العش، ويبتسم. حينئذ، ازداد ارتباكها، استدارت لتعود إلى مكانها، لكنها ما أن خطت خطوتان حتى التفتت إليه سائلة إياه مجدداً:

«هل رأيتك من قبل؟».

ولما لم تلاحظ عليه أي بادرة تشي بأن ثمة إجابة على وشك النطق بها، أكملت طريقها إلى المقعد الخشبي في الجهة الأخرى. جلست عليه وفتحت كتاباً وشرعت بالقراءة، لكنها لم تكن تقرأ، فقد لمحها الرجل وهي تختلس النظر من فوق الكتاب.

بعد مضي أيام، هناك، في حديقة الكتب، تلقت هالة أول إطراء في حياتها.

قال لها الرجل المأهول بالعصافير، بينما هو يشير إلى شعرها البني المعقوص:

«عشّ جميل!».

فردت عليه بابتسامة غمرت وجنتيها باللون الوردي. وهي منذ ذلك اليوم، لا تسمع من ذلك الرجل سوى تلك الجملة المقتضبة التي امتدحت تسريحة شعرها وبعثت في نفسها السرور. لكنها سرعان ما عادت لتشعر بالخيبة، فهي تريد شخصاً يهتم بها لا بتسريحة شعرها فحسب. شخص يحبها ككل وليس كبعض، وتكون في نظره أجمل النساء، ويتغزل، بالإضافة إلى تسريحتها، بوجهها، عيناها، أنفها، شفتاها، بشرتها، قامتها، وحتى عيوبها المتمثلة بالجحوظ الحاد في

عينها اليمنى، واعوجاج إبهامي قدميها الطويلين، نحولها المفرط، وإدمانها على شراء وتجميع الكتب الذي صنّفه أحد الأطباء النفسيين والتي كانت تراجعه قبل سنوات على أنه نوع من الهوس والوسواس القهري يُسمى ببلومانيا.

مر الشتاء، وما زال الرجل المأهول بالعصافير، يواظب على الحضور إلى حديقة الكتب، ليُسمع هالة تلكما الكلمتين السحريتين، ثم يجلس في مكانه المعتاد، أمامها، يلقي عليها نظراته، التي تنبئ عن إعجاب وحب كبيرين، للعش الذي يعتلي رأسها. يفعل ذلك على نحو بدأت المرأة تشعر إزاءها بالإحراج، رغم أن أحداً لم يلحظ حتى ذلك الحين اهتمام رجل العصافير بتسريحة شعرها. لكنه كرهت أن تستمر بالبقاء هكذا، فريسة لنظرات ذلك الرجل الغامض الذي تظن أنه انبثق من قصة خيالية ليزعجها بفضوله وتحديقه المستمر، وينغص عليها أوقاتها الأثيرة.

وفجأة، قررت هالة التعامل مع تلك الشخصية الوهمية بواقعية.

راحت ترتدي الثياب الجذابة، وتضع المساحيق على وجهها، والأقراط في أذنيها، والأساور في معصميها، وتطلي أظفارها، وتفرط في استعمال الكحل، وتصبغ شعرها من دون أن تفكر بتغيير تسريحته ما دام أنه أول ما راق له، لعله يأتي يوماً ويعلن حبه لها، فرجل مأهول بالعصافير أفضل من عشرة على الشجرة. هكذا كانت تقول لنفسها وهي تهم بالذهاب إلى حديقة الكتب.

إلا أن شيئاً لم يتغير، ولبث الرجل المأهول بالعصافير على حاله، لا

يعجبه شيء سوى العش فوق رأس هالة التي بدأت تتذمر وتشعر بالملل، حتى جاء يوم قررت فيه أن تستبدل تسريحتها بأخرى أجمل منها، فلا بد أن يحرك ذلك شيئاً منه، أو يلفت انتباهه إلى الجماليات التي ظهرت عليها مؤخراً، أو يقول كلاماً يعبر فيه عن ولعه بأشياء أخرى ما عدا تلك التسريحة التي بدأت تكرهها، وعزمت على التخلص منها.

وفعلاً، عقدت هالة شعرها على شكل ذيل حصان هذه المرة، آملة أن تسمع، من الرجل المأهول بالعصافير، بعد هذا التغيير، إطراءً أكثر حميمية.

فعلت ذلك وخرجت إلى حديقة الكتب. اشترت كتاباً، جلست في المكان نفسه، قرأت قليلاً، وراحت تنتظر مجيء الرجل المأهول بالعصافير.

لكنه لم يأت.

انقضى نصف النهار، وبدأ الناس بالانصراف، وجمع الباعة كتبهم في الصناديق الكارتونية، وشرع عمال النظافة عملهم في مثل هذا الوقت بتنظيف الحديقة. هالة هي الأخرى انصرفت إلى البيت، وهي تفكر برجل العصافير. هذه هي المرة الأولى، منذ أن رأته في العام الماضي، يتخلف عن الحضور إلى الحديقة. تُرى ماذا حدث له؟ أحسّت أن ثمة شيء ليس على ما يرام، وتساءلت عما إذا كانت الشخصيات الورقية تموت. تصورت الرجل المأهول بالعصافير وهو ميت. فكرت مجدداً: ربما دهسته سيارة أو اختُطف، أو تعرف إلى الغرق، أو سقط عليه خنزير كما حدث مع أحد شخصيات قصص غراهام غرين. ثم عادت لتتساءل مرة أخرى:

«لكن لماذا عليه أن يموت؟ فربما عاد من حيث أتى مع عصافيره، إلى القصة التي خرج منها أو الرواية أو.... لا أعلم!».

في الجمعة التالية، قصدت هالة حديقة الكتب وجلست في مكانها المعتاد. لكنها لم تلاحظ أي أثر للرجل المأهول بالعصافير. كذلك في أيام الجمع التي تلتها.

و في أحد تلك الأيام، حينما كانت عائدة إلى البيت من حديقة الكتب، حطّ عصفور تائه على كتفها، وراح يغرد بصوت عالٍ صمَ أذنيها، وأحدث طنيناً. الأحرى أنه كان يصرخ، ينتحب. كان صوته نواحاً أكثر منه تغريداً.

لم تنفع محاولات هالة في طرده. فاستسلمت في النهاية، وتركت له المجال لأن يأخذ مكانه على كتفها، بينما هي تمشي. كانت تمدّ له ذراعها أحياناً، وتتكلم معه، تحاول أن تفهم ما أصابه. قد تغضب منه، أو تضمه إلى صدرها. تأخذها الشفقة إزاء نواحه، أو تود أن تسحقه تحت قدمها، تنهره أو تواسيه، إلى أن صادفت قبل وصولها إلى البيت، أحد هواة تربية الطيور.

«تبيعينه؟» قال لها.

فكرت هالة بالأمر قليلاً قبل أن تجيبه:

«كم تدفع لأجله؟»

عرض عليها مبلغاً من المال، لم تكن تحلم به كثمن لعصفور بائس، منكوب، أزعجها بنواحه طوال الطريق.

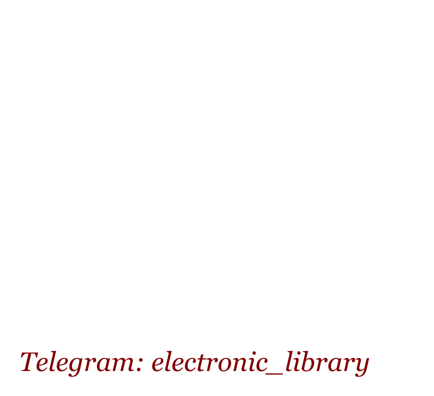
«هل تفهم ما يقوله هذا العصفور؟ سألته.

«تقريباً» أجابها الصبي، وراح يحاكي تغريد العصافير، بينما هو يهز العصفور النوّاح، الذي حط على سبابته، ثم قال:

«مسكين!»

«ماذا حلّ به؟» سألت هالة الصبي الخبير بعالم الطيور.

«أحدهم خرّب عشّه!» رد الصبي.



انتقام المارلين

إلى: ارنست همنغواي

(1)

لم يكن الصياد العجوز يشك في أن الشيء العالق بخطاف الحبل السميك، الذي ألقاه في مياه الخليج العميقة، إنما هو سمكة مارلين عظيمة، عاجلاً أم آجلاً، ستطل عليه من تحت المياه الزرقاء، برمحها الطويل المدبب، وزعنفتها الظهرية المنجلية، وذيلها الهلالي الجميل، لتقول له: « ها أنا جئت يا عزيزي، خذني إليك! « سمكة مخططة، هائلة، يطرد بها نحس أربعة وثمانين يوماً التي لم يصطد خلالها ولا حتى سمكة تونة واحدة، ويُسكت أفواه الببّايات المغردة بالهراء، أولئك البحارة المتقاعدين، الذين يسخرون منه، بينما هم يقضون الوقت بهرش وشوم المراسي على أذرعهم، والعبث بشعور آباطهم، والفرقعة بأصابعهم المصفرة من التبغ.

لن يمض المزيد من الوقت، حتى تشعر سمكته بالتعب، وتخور قواها، فتقرر الاستسلام. عندئذ، سيسحبها هو بيديه اللتين طالما عرك بهما مصاعب الحياة، وواجه التحديات، ومنها تحديه هذه السمكة

المعتوهة التي لا تزال تسحب زورقه منذ أربعة أيام، وتجوب به مياه الخليج المالحة.

(2)

على الرغم من بلوغه الرابعة والسبعين، لم يرق لعطية الجلوس في البيت، وانتظار الموت، أو قضاء ما تبقى من عمره، يحذو حذو البحارة المتقاعدين، فزاعات الزهايمر تلك، الذين يستيقظون في ساعة مبكرة، صباح كل يوم، يجلبون الخبز، ويرمون النفايات، يرشون عتبات أبوابهم بالماء، ويشغلون بقية أوقاتهم الفائضة، المملة، بالتسوق والصلاة ومداعبة الأماكن الحساسة للأطفال. يمشون بترهل، محنيي القامات، بليدين، يفقدون ذاكراتهم قبل الوصول إلى البيت بشارعين، تتقدمهم عصيهم إلى المقاهي والمساجد والأسواق، أو إلى شجرة سدر يتفيأون بظلالها في صباحات الفاو الرطبة، المؤرقة، الدبقة، الباعثة على الغثيان، يتبادلون الأحاديث الفارغة، والقهقهات الببّايوية التي تكشف عن لثات مجردة، وجذوع أسنان منخورة تثير القيّء، وفكوك اصطناعية عادة ما ينساها اثنان أو ثلاثة منهم، فتقع عليها أيدي الأولاد المارين من هناك، في طريقهم إلى ساحة الكرة، فيعظ بها بعضهم الآخر، في الأذرع والأيدي، محاكين بذلك أفلام الرعب والحركات الروبوتية للهياكل العظمية.

لم يكن عطية من صنف هؤلاء المسنين، خائري القوى، الذين يبدأون مرانهم اليومي على الاحتضار، في اليوم الذي يلي اعتبار قرار عزوفهم عن الإبحار ساري المفعول. كان يملك من القوة والإرادة، وهما الخصلتان

اللتان لم تفارقانه طوال عمره الفائت، الشيء الفلاني، بتعبير أولئك العجزة الذين كانوا ينظرون إليه بعين الحسد، حينما كان في عزّ شبابه صياداً أمهراً، والأوفر حظاً بين أقرانه من صيادي الفاو الأفذاذ، أوديسات البصرة وراكبي أمواج بحرها العتيد، أما الآن، فلم يعد أحد منهم ينظر إليه، إلا بعين السخرية والازدراء، كلما رأوه يحمل طعامه وأدوات صيده، متوجهاً إلى زورقه الذي يمخر به مياه الخليج، بحثاً عن أسماك سمينة، أسماك ملونة وجميلة، عادة ما تكون مدعاة لثناء زوجات أولاده الأربعة.

(3)

أبعد نظره نحو البحر، فرأى أنه لا يمكن أن ينتهي عند مد البصر، فلا أثر لليابسة هناك. لقد ابتعد كثيراً، حتى أنه في بعض الأحيان، خلال الأيام الأربعة الماضية، ظن أنه تاه. لكنه قرر مع نفسه، أنه لن يعود إلى أي مكان فيه يابسة، ما لم ينتشل صيده العظيم، تلك السمكة العنيدة التي ما زالت تقطر بزورقه، وتدور به بحركة واهنة، وأحياناً بعنف يكاد يلمس معه موته الوشيك، كما لو أنها تريد أن تقول له: يا من تذهب نحو الغروب، خرب ما تجده في طريقك.

«ليكن» قال العجوز. كان يزفر أنفاسه بصعوبة بعد أن عجّت به السمكة في حركة كادت أن تلقيه إلى البحر: «إذا كان لا بد أن أموت، فلأمت هنا إذن!» فكر بصوت عالٍ جفل منه الطائر المغرد الذي حط على مقدمة الزورق، متوجساً من أي حركة يمكن أن تصدر من عجوز حانق صار أخرقاً، ولا يمكن التكهن بتصرفاته:

«هنا.. فهذا الزورق نعشي والشراع كفني وهذا الصاري شاهدتي! هل فهمتِ يا سمكة النحس؟ هاااا.. يا سمكتي العظيمة.. هاااا هل تسمعينني؟ هل هذا مفهوم أم يبدو لكِ خراء يا سمكة؟»

صار يتحدث بصوت أعلى، كما لو أنه يوبّخ أحداً: «هااااا، أيتها السمكة القذرة، أيتها الفاشلة، يا علبة التونة الرخيصة، هاااا، تفوو عليك يا بحر!».

(4)

«القوة والإرادة» دائماً ما يحدث عطية الصياد أحفاده، ويبدو أثناء ذلك، كما لو أنه يستعرض عضلاته «أهم ما يمكن أن يملكه الإنسان ليعيش بكرامة».

لم يمضِ الكثير من الوقت، منذ أن توفيت زوجته. اعتكف بعدها في غرفته لأكثر من شهر، نحل جسده، وصار يعاني من فقر في الدم، قبل أن يستعيد عافيته تدريجياً، ويخرج من عزلته إلى البحر الذي كان يقضي فيه أغلب وقته، إما في قاربه، أو يجلس على صخرة قبالته، يتأمل موجة آتية هنا، جالبة معها سمكة ميتة أو زجاجة فيها رسالة من مجهول، ونورس ينشد رزقه على الشاطئ هناك، صيادين ينتشلون شباكهم من المياه، مثقلة بالأسماك البحرية الصغيرة، التي يمكنه أن يراها تتلألأ من بعيد في الليالي المقمرة.

منذ ذلك الحين، وحباله لم ترفع سوى الأسماك الصغيرة. وعلى الرغم من ذلك لم ييأس الصياد العجوز من إمكانية أن ينال مراده من الصيد الوفير، إذا ما امتلك الشجاعة الكافية، وراح يضرب في البحر

أبعد من المسافات التي كان يقطعها، من دون أن يضيع أثر المرافئ خلفه، إذ كان يحرص على أن يجعلها بمرمى البصر، فمتى ما التفت وجدها هناك، وإن تكن بعيدة بعض الشيء، إلا أن مجرد رؤيتها يبعث على الطمأنينة. لكنه هذه المرة، قرر أن يبتعد أكثر، وأعد العدة لرحلته تلك، وأوصى زوجات أبنائه بتحضير طعام كافٍ يضمن له عدم الموت جوعاً، إذا ما حدث وتاه في البحر. أصلح حباله، وأعد طعماً جيداً من أسماك السردين، ورتق الشراع الذي خاطته له زوجته من قماش الخيام العسكرية، ونزل إلى البحر، بزورقه الخشبي المعزز بإطارات دراجات نارية مستهلكة.

فجر ذلك اليوم، خامر الصياد العجوز شعوراً بجدوى أن يستمر بالتفاؤل قدر ما استطاع إلى ذلك سبيلا. كان قد آثر الموت غرقاً، أو تفترسه سمكة قرش، على أن يعود خالي اليدين هذه المرة، ويكون موضع سخرية البحارة المتقاعدين الذين تركوا عاداتهم المشينة، ووجدوا في خيباته المتكررة تسلية لا بأس بها، وملهاة تثير قهقهاتهم كلما رأوه يسجل صفراً جديداً، بعودته خائباً، حاملاً صاريه وشراعه وحباله التي تمزقها السلاحف الزاحفة، وخطاطيفه التي لا تنتشل هذه الأيام سوى البساطيل. لهذا، أمّن من الطعام والماء ما يكفي لعدة أيام، فإما يهبه البحر خلالها نصيبه من الصيد، أو يموت بعدها في زورقه، ثم لن يأبه بعد ذلك بمصير جثته.

(5)

سأصطادكِ أيتها السمكة البدينة قال الصياد العجوز، وهو يهزّ سبابته متوعداً: «هل تظنين أنكِ قادرة على الإفلات من قبضة عطية الصياد؟ ها ها ها! لن تحلمي، ربما في غضون ساعات، بأكثر من أن تكوني على مائدة طعام الغد، أو في بسطة أحد الباعة في سوق السمك، وسترين ذلك بعينك أيتها السمكة السمينة. وإذا كان ثمة نية أخرى لكِ سوى الاستسلام، كقتلي مثلاً، فهيا، أخرجي إن كنتِ سمكة حقاً، تعالي، لأني أقسمت بشرفي ألا أموت في مكانٍ غير هذا البحر!».

كان صوته أقل حزماً مما لو كان يكلم بشراً يمكن استفزازه بكلمات التحدي تلك، الكلمات التي كانت تخرج من بين شفتيه المتيبستين، كأنها طعام اكتشف مذاق طعمه السيئ متأخراً، فراح يبصقه على حياء. أطلق ذراعيه محاكياً فعل المعانقة، وهتف: «الزورق نعشي والشراع كفني وهذا الصاري شاهدتي!».

(6)

ثلاثة أيام مضت ولم يظهر للصياد العجوز من أثر. وفي اليوم الرابع بلغ عنه في مركز الشرطة، وأخطر أولاده خفر السواحل، فرجح هؤلاء إنه ربما تاه في البحر، أو مات في حادث عرضي من تلك الحوادث التي يتعرض لها الصيادون، ممن يجتازون المياه الإقليمية الإيرانية أو الكويتية.

في ذلك اليوم، هبت رياح شمالية قويه، هيّجت مياه الخليج، وأجبرت الصيادين على العودة في أوقات أبكر من المعتاد، إلا أن أحداً لم ير عطية، الصياد العجوز، الذي يرفض الاستسلام للشيخوخة، والجلوس في البيت، يعد ايامه الأخيرة، ويقضيها في التسبيح، وجمع المزيد من الحسنات لآخرته، كما يوصيه بذلك أبناءه الأربعة الذين، وفق دلائل لم يعد بالإمكان دحضها، سيعلنون عن موته، وإقامة مجلس عزاء، ابتداء من الساعة التي ينتهي فيها اليوم الرابع على فقدانه. البحارة المتقاعدين كفوا عن السخرية، وبدأوا يذكرون محاسن الفقيد، وكم كان صياداً ماهراً، شجاعاً، كائن بحري بامتياز، كأنما ولد في قعر البحر وإليه قرر أن يعود، ليموت هناك، حيث الزورق قبره، والشراع كفنه، والصاري شاهدته.

(7)

ها هو الآن يبدو محبطاً، يتساءل بكسل عما إذا كانت السماء تحتاج إلى كل هذا الوقت، أربعة أيام، لكي تقرر مساعدته على انتشال هذه السمكة الكبيرة إلى الزورق:

«أنا في ورطة!» قال رافعاً رأسه، كأنه يستطلع الجو، أو ليلمح طائرة قد تكون مرت من فوق الغيوم المتفرقة: «ملاك واحد يا إلهي، ملاك واحد وأنتصر!».

وفضلاً عن نفسه، والسمكة التي لم تكن تنوي، حتى ذلك الوقت الذي راح العجوز يتهجد باسم الله لكي يساعده، أن تستسلم مذعنة إلى

توسله، لم يبق طائرٌ ولا سلحفاة طافية، ولا سمكة ميتة، إلا وتحدث معها. حتى أسماك القرش، أو هكذا ظن أنها في البداية عندما بانت زعانفها المخيفة، وهي تشق المياه أثناء دورانها المريب حول الزورق، راح يتوسلها بصوت تتخلله عبرة، وثمة دموع توشك أن تسقط من عينيه وتخضل لحيته البيضاء التي طالت أكثر مما ينبغي، منذ ان ماتت الزوجة، بأن لا تأكل سمكته العزيزة، سمكته السمينة ذات اللحم الوفير التي بدأت أخيراً بالاستسلام، فقد أحس بارتخاء الحبل الذي يلفه حول يده اليمنى المدماة بفعل الجذب والضغط عليها طوال الأيام المنصرمة، فتدفق الدم في عروقه دفعة واحدة، أو هكذا أحس وهو يسحب السمكة التي، وعلى ما يبدو، أنها تركت نفسها للمصير الذي لا بد منه، بينما هي تلفظ أنفاسها الأخيرة، فراح يسحبها، متلفتاً في كل الاتجاهات، وكأنه يريد أن يطلب المساعدة، إلا أن أحداً لم يكن في الجوار، باستثناء تلك الزعانف التي ما زالت تدور حول الزورق، وكانت تقترب منه كلما اقتربت سمكته من السطح، فلاحظ أثناء ذلك، وهو ما أشعره بالطمأنينة، أن تلك الزعانف لم تكن قرشية، إنما زعانف أسماك المارلين. كان بإمكانه معرفة ذلك بسهولة، من خلال الشكل المنجليّ الذي تتخذه الزعانف الظهرية لذلك النوع من الأسماك الضخمة، لو لا أن الخوف أعماه في تلك اللحظة، ولم يعد يميز، مثل بدويّ مغفل أبله، الناقة من الجمل.

«أفهم شعوركِ أيتها الأسماك» قال العجوز بنبرة منتصرة، ظافرة، وهو يسحب الحبل ليجذب صيده الثمين من القاع: «لا بد أنكِ حزينة لمصاب رفيقتكن، لكن ماذا عساني أن أفعل وهذه هي الحياة، آكل ومأكول. نريد أن نأكل، نحن جياع أيتها الأسماك، جياع!».

«جياع!» صاح مخاطباً السمكة التي لم تخرج بعد، وقد غادرت النبرة المنتصرة صوته، وراح يتكلم على نحو غاضب: «ها أنتِ قادمة أيتها السميكة، أرجو أن تكوني قد شبعتِ موتاً، ايتها الحقيرة. هل تظنين أن هذه الأسماك الغبية جاءت لإنقاذك؟ ها ها .. فلتفعل إذن إن كانت تملك الجرأة» يشعر بالتشفي: «تعالي أيتها الأسماك الحمقاء، لنر من هو الصياد ومن هو الطريدة! مع تمنياتي القلبية بأن لا تكوني في النهاية، بعد هذا العناء وهذه الحقارة التي أبديتِها، بسطال جندي، أو هيكل عظمي لقرصان من زمن العصملّي!»

كان يتوقف عن سحب الحبل كلما هم بالتحدث إلى أسماك المارلين التي احتشدت حوله بكثرة عجيبة، وراح بعضها يقفز في الهواء، في حركات واستقامة تثير الإعجاب، المشهد الذي زاد من تألق العجوز واحتفائه بسمكته التي أوشكت أن تطل من تحت المياه الرجراجة، وسط الألعاب البهلوانية السمكية، وكان من المفترض أِن أول ما يظهر منها هو رمحها المدبب. إلا أن شيئاً ما حدث في النهاية، شيء مروع إلى درجة أن الصياد العجوز فزع منه أشد الفزع، فأفلت الحبل، وتقهقر زحفاً إلى الوراء، وهو ينظر بعينين ذاهلتين إلى مشهد، على الرغم من سنوات خدمته الطويلة في البحر، لكنه لم يره مثيله من قبل، ولا حتى في كوابيسه.

«قرش!» صاح بما يشبه الصوت الثاكل: «إنه قرش!».

راح يلعن، ويندب حظه، بينما هو يهوى على القرش ببلطة حادة، ويمزق رأسه. يبصق عليه، كأنه يريد بذلك التخلص من طعم الهزيمة

الذي لذع لسانه. كانت قواه تخور مع كل ضربة، حتى انهار تماماً وسقط على جنبه، وبدأ بالنحيب. جلس على مؤخرته وأحاط ساقيه بذراعيه، وظل واجماً على هذه الحال لأكثر من ساعة، قبل أن يحزم أمره على العودة غلى البيت، فهو في النهاية قد أوفى بوعده، واصطاد شيئاً ضخماً، ولا يهم إن كان سمكة قرش أم سمكة مارلين.

ربط القرش بجانب الزورق، واستطلع البحر بعينين يائستين، قائلاً بمرارة: «أين هو بيتي؟!» لم تعد أسماك المارلين في الجوار، وفكّر العجوز: «لا بد أنها سخرت مني وهي تغادر، وقد علمت أني اصطدت قرشاً تافهاً لا نفع فيه. تلك الأسماك الضخمة المغرورة، سيأتي يوم أظفر بإحداها، وأوزع لحمها على الفقراء من أجل زوجتي.. هذا وعد». كان متعباً، ويداه تؤلمانه من الجروح التي خلفها الحبل. استلقى في قعر الزورق المكسو بالقير، وغط في النوم.

افاق عند الغروب، بالكاد فتح عينيه، ورأى أضواء المرفأ تتلالأ من بعيد، وثمة حركة لبط وقضم تنبعث من مكان قريب، ركع على ركبتيه، ومن صندوق حديدي صغير أخرج مصباح يدوي، كان قد أعانه على الرؤية طوال الليالي الفائتة، سلط ضوءه على سمكة القرش المربوطة بقاربه، فرأى هناك مجموعة من أسماك المارلين وهي تطعن برماحها القرش في كل أنحاء جسده، في عينيه، في رأسه، في خياشمه، في معدته والمريء، وحتى في شرجه. تمزقه، تصل إلى كبده، أمعاءه، قلبه، حبله الشوكي، وتحوله إلى كتلة مشوهة من اللحم والغضاريف الكريهة ونتف أملاح الكالسيوم الصلبة.

نجوم الظهيرة

سألت الحفيدة التي تُدعى نجمة جدتها لأبيها أحد تلك الأسئلة، التي لا يجد الكبار لها أجوبة مقنعة، فيضطرون للكذب حتى لا يبدو أحدهم عديم المعرفة أمام الأولاد الصغار بعمر نجمة، ولكي يتجنب المزيد من الأسئلة الشائكة التي لا تخطر على بال أحد سوى الأطفال والشعراء، مثل:

ماذا يفعل الأصم بجرس الباب؟

بماذا تحلم البراكين النائمة؟

من أسأل عما جئت أصنعه في هذه الدنيا؟[1]

أين تذهب الأصوات عندما لا يسمعها أحد؟[2]

أين يذهب البط في الشتاء عندما تتجمد البحيرة؟[3]

لم كل هذه اللقالق؟ إلى أين تذهب؟[4]

أما سؤال نجمة لجدتها فجاء على النحو التالي:

«أين تذهب النجوم في الظهيرة؟»

---

(1) بابلو نيرودا

(2) سركون بولص.

(3) سالنجر، الحارس في حقل الشوفان

(4) كالفينو، الفيسكونت المشطور.

ولما لم يكن بإمكان تلك الجدة العثور على إجابة شافية، راحت تبتدع أسطورة صغيرة مفادها أن النجوم تعود إلى الله في الظهيرة. قبل أن تبدأ، كالعادة، بإسداء النصائح الأخلاقية، قائلة بلهجة تحذيرية آمرة، بينما هي تهزّ سبّابتها أمام عيني نجمة ذات الأعوام الستة:

«لا تقتربي من الرجال أبداًا!»

«لماذا يا جدتي؟»

تساءلت الحفيدة مجدداً، وألحت على معرفة الجواب. في حين شعرت الجدة أنها في مأزق، وترددت كثيراً قبل أن تقول:

«لكي لا يتعفن شرفك كما حدث مع......!»

لم تكمل الجدة جوابها. راحت تتكهن بالسؤال التالي الذي ستطرحه ابنة ولدها. ظنت أنها ستسألها: وما هو الشرف يا جدتي؟ إلا أن شيئاً من ذلك لم تتفوه به الفتاة الصغيرة، التي بدت كأنها تفكر في تلك الأثناء، قبل أن تفاجئ جدتها بقولها:

«كما حدث مع من يا جدتي؟»

كان سؤالاً صعباً، أو هكذا وجدته المرأة العجوز ذات الملامح القاسية. فالتزمت الصمت، لكن حفيدتها لم تكف عن الحاحها، إنما عادت لتسألها السؤال نفسه.

عندئذ، قالت الجدة بعصبية واضحة:

«مع أملكِ!»

انتظرت بعدها أن توجه لها الحفيدة اللجوجة سؤالاً آخر يتعلق بالأمر الذي حدث مع أمها، وأدى إلى تعفّن شرفها، ثم قتلها على يد الزوج في النهاية. استعادت على مضض الذكرى الملطخة بالدماء، وتراءى ابنها لها وهو يمسك شعر زوجته بيد ويحمل سكيناً بيده الأخرى ليغمدها في قلبها. لم تنفع في حينها توسلات الزوجة بألا يهرق دمها. كانت تحاول تبرئة نفسها من التهمة التي ألصقها بها وأيدتها أمه مدفوعة بالحقد التاريخي للحماة على كنتها التي تظن أنها سرقت منها ابنها. لم تشعر بالذنب وهي ترى ذلك الابن المهتاج، الغاضب، وهو يطعن كنتها عدة طعنات ويرديها قتيلة. ثم يخرج من البيت ويعلن لسكان القرية أنه غسل شرفه المهان بالدم، ليحظى بالمباركة. يُقاد بعدها إلى السجن ويخرج بعد ستة أشهر، ليتزوج من امرأة أخرى ويودع ابنته لدى أمه التي ما زالت تواجه سيل الأسئلة المحيرة التي تطرحها ابنة المرأة القتيلة.

فكرت بماذا تجيبها عندئذ. تخيّلت نفسها وهي تهزّ الفتاة من كتفيها وتصرخ بوجهها:

«أمك ماتت، قُتلت، ذهبت إلى جهنّم!»

لكنها لم تفعل ذلك. طردت الفكرة من رأسها وآثرت الاستمرار في تلفيق الكذبة القديمة بشأن الأم التي لا تعرف نجمة عنها شيئاً سوى أنها غادرت إلى مكان لا عودة منه، وأنها ماتت أثناء المخاض ودُفنت في مكان بعيد. وعلى الرغم من ذلك، لا يُرى لها صورة إلى جانب صور موتى العائلة التي تملأ الجدران.

غير أن نجمة، في ذلك الحين، كانت تفكر في سؤال آخر راح يؤرقها،

ولم تنم بسببه في تلك الليلة. وما أن أشرقت صباح اليوم التالي، حتى بادرت إلى سؤال الجدة حين كانت هذه تفلي شعرها وتدهنه بالزيت:

«كيف يتعفن الشرف يا جدتي؟»

أجفلت الجدة وشدّت شعر الفتاة الصغيرة بحركة لا إرادية مفاجئة ومتوترة، ثم شرعت تضفره وهي تفكر بإجابة مناسبة تساير بها عقل الطفلة التي لا يبدو أنها ستكفّ عن طرح الأسئلة المتعبة.

قالت:

«كما تتعفّن الفاكهة!»

وكما هو معتاد بعد كل إجابة تصوغها، توقعت الجدة أن تباغتها الحفيدة بسؤال عن نوع الفاكهة التي تتعفن مثلما يتعفّن شرف المرأة. فكرت بالتفاح لما له من حضور في المرويات الشعبية، ولدلالته الاسطورية على الغواية وانتاج الخطيئة الأولى.

لكن نجمة في ذلك الحين كانت تحضّر لسؤال مختلف.

قالت بينما هي تشتهي تفاحة:

«إذا كان الشرف يتعفن مثل الفاكهة لماذا لا يحفظونه في الثلاجة؟».

نهضت الجدة من مكانها بعد أن أكملت الضفيرة. رفعت صينية الفطور وحملتها إلى المطبخ وكل ظنها أنها ستتخلص بتهربها هذا من حفيدتها وأسئلتها الساذجة حيناً والوجودية العميقة حيناً آخر. لكن نجمة تبعتها إلى هناك، تشبثت بثوبها وراحت تعيد السؤال نفسه. وحين أدركت الجدة أن لا مهرب من الإجابة، همهمت بتذمر وقالت:

«لا أحد يستطيع فعل ذلك».

«لماذا؟»

أيضاً لماذا؟

هذه الكلمة الباحثة إلى الأبد عن الأسباب. السؤال الأزلي الذي ينقش نفسه على حجر كل زمان وفي كل مكان: لماذا نشرب الشاي؟ لماذا يُسمى البحر الميت؟ لماذا تخليت عني يا أبتاه؟ لماذا نحب؟ لماذا نكتب؟ لماذا لون السماء أزرق؟ لماذا خلقنا الله؟

حينذاك، بدا واضحاً انزعاج الجدة من لجاجة حفيدتها المتواصلة. كانت قد خرجت من المطبخ إلى الفناء الأمامي. جلست تحت أشعة شمس شباط الدافئة، وخطر لها أن تصنع دمى طينية لنجمة لعلها تنسى أسئلتها المؤرقة. لكنها ما أن همّت بالنهوض حتى تناهى صوت الحفيدة إلى سمعها:

«لماذا يا جدتي؟»

كانت تتكئ على جدار الغرفة التي بجوار المطبخ، وقد شبكت أصابع يديها فوق رأسها، بينما هي تتساءل لماذا لا يستطيع أحد أن يحفظ الشرف في الثلاجة ليمنعه من التعفن.

أجابت الجدة بغضب طفح على وجهها المتغضن.

«لأن الشرف ليس تفاحة!»

«لكنكِ قلتِ إنه يتعفن!» قالت نجمة محتجة.

«نعم قلت» ردت الجدة بنفاد صبر:

«لكنه ليس تفاحة على أية حال!»

صمتت نجمة ولم تعد لتسأل عن شيء طوال ساعة كانت تراقب خلالها تلك الجدة وهي تصنع الدمى من طين أعدته من الماء والتراب. سألتها إن كانت تود مشاركتها بهذا العمل، فابتسمت الجدة وناولتها طيناً:

«ماذا ستصنعين؟»

«سأصنع لي شرفاً وأجففه» ردت نجمة: «الطين لا يتعفن.. أليس كذلك يا جدتي؟»

«بل يتعفن!» نهرتها الجدة: «خلقنا الله من الطين وسنتعفن يوماً ما!»

«وماذا يحصل إذا تعفن شرفي؟»

«تذهبين إلى جهنم!» أجابت الجدة على نحو أظهر كم بقي لها حتى تفقد صوابها:

«إلى جهنم يا بنت!»

«حسناً» تأففت نجمة بخمول مصطنع، كأن أحداً ما راح يرغمها على النوم مبكراً في تلك الأثناء:

«ألا يوجد غير جهنم يذهب إليها الناس؟!»

لكن الجدة لم تجبها. كانت قد نهضت من مكانها على البساط ودلفت إلى المطبخ لتعد الغداء. في حين أكملت الفتاة قائلة بيأس وهي تمرغ يديها بالطين اللزج:

«إلى الله مثلاً!»

ثم أعقبت عبارتها تلك بصوت خافت كما لو أنها تبتهل:

«أولست نجمة يا الله؟».



حوصلة الزاجل

كان عبيد النزّاح، عاشق الزواجل، الذي ورث من أبيه صلعته المبكرة ومهنته في إجلاء القذارة من بلاليع البيوت، يحب فتاة لم يمضِ الكثير من الوقت، منذ أن سكن أهلها بيت البغاء الذي هجرته ساكناته هرباً من فدائيي الحملة الإيمانية التي أطلقتها الحكومة منتصف التسعينات.

لم يأخذ أهل «سجيّة» ازدراء أهالي الحي، ونظراتهم المتثاقلة المتسربلة بالريبة ـ بسبب عدم مبالاتهم حينما قرروا السكن في بيت مشبوه ـ على محمل الاهتمام، ما دام أن ثمنه أقل بكثير من بقية البيوت المعروضة للبيع حينذاك. وحده النزّاح كان فرحاً بذلك، منذ أن رأى سجيّة أول مرة، حينما كان يجلي محتوى بالوعة بيتهم التي كانت مليئة من قبل، ببراز زبائن المبغى من مراهقين، وجنود، وسكارى.

كانت سجية تحمل صينية فيها إناء بيض وطماطم مقليان معاً، وخبز وشاي. وكانت تنظر إليه، بينما هي تناوله الصينية، على نحو جعل قلبه يخفق بشدة، كما لو أن زاجلاً من تلك الزواجل التي يربيها في برج خشبي، فوق سطح الخص الذي يسكن فيه مع أمه، على مقربة من النهر، يبحث عن فجوة بين أضلاعه ليطير إليها، يحط على كتفها، ويهمس لها بكلمات متكلفة بلهاء، تضحك منها الفتاة، كأن أحداً لكزها في جنبها،

فتواري ضحكتها بشالها الأسود وتستدير بحركة تنم عن غنج متصنع، كما تفعل راقصات الفرقة القومية المحشورات في ثياب نساء قرويات يحملن دلاء ماء أو لبن. تمشي باتجاه باب الهول بخطوات دابكة، وتكشف له ردفيها اللذين يهتزان بشكل ينم عن عهر أكثر منه دلعاً، وقبل أن تختفي خلف الباب، تلقي نظرة أخيرة، نظرة خبيثة، غائرة بين الجموح والإغواء، بين تعال وانتهز الفرصة أو فلتذهب إلى الجحيم يا مجلي القذارات. الأمر الذي لم يحدث حتى مع جميل، الشاعر الوحيد في الحي، الرومنطيقي الغاوي، السكير، الفاسد والوسيم الذي أخترق بسحره وشاعريته وذؤابته التي تواري إحدى عينيه قلوب الجميلات. حسب ما قيل عنه، أنه يستطيع أن يأسر قلب الفتاة من أول رسالة حب مذيلة بأبيات شعر غزلية ورسوم لقلوب مفطورة وأخرى تخترقها السهام. لكنه، وعلى الرغم من مرور عدة أشهر لم يستطع إغواء سجيّة، أو أنه لم يحصل على الطريقة التي تمكنه من إيصال رسائله إليها، بعد أن أحبطه جموحها الذي عادة ما يكون ردة الفعل الوحيدة التي يتلقاها رداً على غزلياته المكررة، في كل مرة يتبعها من الحي إلى السوق وبالعكس. في الوقت الذي ما تزال هي تسحر بنظراتها وإيماءاتها وتلويحاتها الزاجل الذي ما زال محبوساً في صدر عبيد النزّاح، منذ ذلك اليوم الذي جاء فيه إلى بيتهم ليجلي محتوى البالوعة.

عبيد لا يجيد التحدث إلى النساء، ولم يتغزل في حياته بامرأة قط، وفي كل مرة يلسع الحب قلبه يعمد إلى كبحه بعنف، يصفع نفسه، مدركاً إلى الحد الذي لن يعود ثانية ليشك بمدى ما هو عليه من واقعية، أن ليس هناك امرأة تعشق عبيد النزّاح، الذي حاول مرة ترك مهنته والعمل كصياد

سمك في الفاو، فمرض في إثرها وضاق تنفسه وبدأ بالنحول، فنصحه الطبيب، في واحدة من أتفه التشخيصات المرضية في العالم، بالعودة إلى إجلاء قذارة البلاليع، لأن قفصه الصدري تشبع برائحة القذارة، إلى درجة جعلت فرصه بالعمل في مهن أخرى شبه معدومة. لكنه هذه المرة، مع هذه الفتاة التي صار يحس بلزوجة قدميها وهي تغور عميقاً في طين ضفته، كان لطعم الحب في حلقه مذاقاً مختلفاً، لدغة أفعى إن لم تسمم الزاجل القابع في صدره فربما تشلّه إذا ما استمر بخفقانه البليد، فاغر فمه بالدهشة المرّة، مذهولاً مثل أبله لا تجد اللقمة إلى فمه سبيلاً. لكنه، وفضلاً عن افتقاره إلى تلك الشطارة في مصارحة امرأة يحبها، لم يكن عبيد يعرف القراءة والكتابة، وعلى الرغم من ذلك لم يكن ليجازف بالوقوف أمام معشوقته وجهاً لوجه، ويكلمها بشأن زاجل الحب الذي ربما ستُنتف ريشاته، ويُشوى على نار انتظاره الهائجة، مثل تنبل يفتح فمه بانتظار أن تسقط في غوره تمرة. وكما هو الحال مع بقية العشاق في الحي، الذين يواجهون جفاء الحبيبات وتنمُّرهن وصدودهنّ، فيستعينون بجميل الشاعر ليدبج لهم خواطر غرامية وأشعاراً غزلية تُليّن قلوبهنّ وتجذبهنّ إليهم من اليد التي توجعهنَّ، اضطر عبيد إلى التوسّل بشاعر الحي ليكتب له رسالة يعبر فيها عن لواعجه وهيامه بسجيّة.

في البداية، شعر جميل الشاعر بالغيرة الشديدة، ورفض أن يكتب للنزّاح حرفاً واحداً، بل غضب منه وأنّبه، وسخر من محاولته الفاشلة في كسب ود فتاة حسناء مثل سجية، بينما هو على تلك الشاكلة، نزّاحاً بائساً تنبعث منه الروائح النتنة. لكنه، فاجأ عبيد في أحد الأيام وربما بداعي الشفقة، قرر أن يكتب له رسالة غرامية، فجلس الاثنان معاً في ليلة شتوية

مقمرة باردة، وعلى ضوء شمعة راح الشاعر يدون بخطه المنمق ما يشعر به النزّاح تجاه سجيّة، ويذيل الرسالة ببيتين من الشعر وقلب ينضح دماً.

«حين ترد عليك اجلب رسالتها لأقرأها لك».

في الليلة نفسها، شد عبيد الرسالة بخيط وربطه بحجارة قذفها عالياً باتجاه البالكون الواطئ لبيت أهل سجيّة، في الوقت نفسه الذي اعتادت هي أن تقف فيه هناك، بانتظار مروره، ليتلقى إحدى تلك التلويحات من يدها البيضاء الصغيرة التي تلمع في الظلمة مثل نيزك. أحس بخفق زاجل الحب، وكان هذه المرة أكثر شوقاً للإفلات من ذلك السجن الذي يسمونه القفص الصدري والاختباء بين نهدي سجيّة الجميلة، بعينيها اللتين تلمعان كعيني قطة خبيثة ظفرت بجرذ سمين، بينما هي تلتقط الرسالة وتنظر مودعة إياه بتلويحة زادت من جنونه.

مرت ثلاثة أيام، ولم يتلق النزّاح رداً من محبوبته التي لم يلمح لها أثراً في البالكون طيلة الليالي الفائتة. وكان قد ترك العمل خلال هذه الأيام، وراح يقضي أغلب وقته فوق سطح الخص مع زواجله البيض المحجّلة، الأمر الذي استدعى أقصى ما يمكن أن تشعر به الأم من قلق، وهي ترى ابنها على تلك الحال، لا يأكل ولا يشرب ويدخن كثيراً، ويناجي زواجله ببكاء يفطر القلب، يتحدث إليها عن سجيّة الحلوة، سجية الملعونة التي يبدو أنها لم تعد تعبأ به، وانصرفت إلى حبيب آخر، شاعر رومنطيقي وسيم وفاسد، بشعر سبط وليس أصلعا مثله، يعرف القراءة والكتابة، ويثير شبقها بأشعار إيروتيكية ماجنة.

في صباح اليوم الرابع، كان عبيد لا يزال فوق سطح الخص، يطعم

زواجله العشرة في البرج، قبل أن يخرجها للتشمس، يعدها: واحد، اثنان، ثلاثة.... حتى يصل إلى الرقم (9) بينما يرفض الزاجل العاشر الخروج، حيث يحشر نفسه هناك في إحدى زوايا البرج، نحيلاً، بائساً، تنتنه رائحة الذروق ويشكو بهديل أقرب إلى الصفير نقر الزواجل الأخرى. يحمله برفق، يقربه، يزنه بيديه: «لا بد أنك نحلت كثيراً يا صديقي» يلصق خده بحوصلته، يتسلل دفء ذلك الجزء من الحمامة ويسري في كامل وجهه، يشبهه بصدر أمه، وبالعكس حين تحتضنه أمه يقول لها: صدرك دافئ مثل حوصلة حمامة.

بينما هو على هذا الحال، كأنه يقضي أيامه الأخيرة مع زواجله قبل أن يموت، فوجئ عبيد بحجارة وقعت على مقربة منه، وكادت أن تصيب إحدى حماماته. كانت مرفقة بورقة، بالطريقة نفسها التي أوصل من خلالها رسالته إلى سجيّة. خفق قلبه، أحس كما لو أنه بُعث من قبر الذروق الذي يعشش فيه منذ ثلاثة أيام فوق سطح الخص، لفت انتباهه الزاجل الذكر المريض وهو يخفق بجناحيه ويقف على حافة باب البرج، يهبط، يلتقط حبات العدس والحنطة بحركة واهنة، منتشياً بشمس شباط الدافئة. وقبل أن يلتقط النزّاح الورقة، هرع نحو سياج السطح الطيني وأطل من فوقه ليرى إن كانت سجيّة ما تزال هناك، إذ لم يخالجه الشك في أنها هي من فعلت ذلك. لكنه لم يرَ شيئاً سوى بعض الصبية الساديين يشنقون قطاً على غصن شجرة سدر. وبعد أن أنهكه الدوران حول تلك الورقة المرفقة مع الحجارة، مثل حمار الطاحونة، التقطها أخيراً ونزل إلى الأسفل، قَبّل أمه من رأسها فابتسمت هذه ببلاهة، وبان سنها الوحيد الذي يقبع في وسط الفك العلوي مثل بروز صدئ ناتئ من هاوية.

«هي تحبك أنت!» هتف جميل الشاعر، ثم ارتشف من كأس فيه مشروب لذع حنجرته وراح يكح ويقهقه مردداً: «كذب محمود درويش، هي تحبك أنت!»

وحينما سأل النزّاح من هو محمود درويش، قال له جميل إنه أفّاك عظيم. ولم يفهم مجددا هذه العبارة. كان يشعر، بينا هو يستمع إلى غراميات معشوقته الحلوة البيضاء، بسعادة تكاد أن تشق صدره وتطير على شكل زاجل ناصع البياض، زاجل جميل وسعيد، حتى إذا أخذت نبرة جميل الشاعر بالتميع علم أنه ثَمِل.

«واعِدها..» قال الشاعر بصوت ينم عن لؤم، بينما هو يدلع لسانه بحركة إفعوانية خبيثة، ويفتعل حركة ماجنة أربكت النزّاح وأثارت حنقه.

في تلك الأثناء، وبعد أن تسلم من النزّاح ثمن الرسالة الأولى، باشر جميل الشاعر بكتابة رسالة جديدة يضرب فيها موعداً مع الفتاة، في الساعة العاشرة من مساء اليوم التالي، بالقرب من مضخة السقي المهملة على ضفة النهر، حيث ترسو هناك إحدى زوارق النقل المتروكة منذ حرب الخليج الثانية.

الساعة العاشرة..«قال جميل وهو يلوح بالورقة التي كتب فيها الرسالة مؤكداً: لا تنس يا ولد».

انتظر عبيد حتى حل الظلام، وذهب إلى بيت سجيّة، وألقى الرسالة بالطريقة نفسها، على الرغم من أنها لم تكن هناك، لكنه أحس بوجودها، ولا بد أنها رأته وهو يقذف الحجارة في البالكون. وفعلاً، جاء الرد في اليوم التالي، في الوقت نفسه، حين كان النزّاح يقضي ضحى ذلك اليوم

مع حمامه الزاجل على سطح الخص، الذي كان واطئاً إلى الحد الذي لن يكلّف سجيّة عناء قذف الحجارة المذيلة برسالتها الغرامية، أثناء مرورها عائدة من الحقول المحاذية للنهر، حاملة معها باقات من النعناع والرشاد والكرفس.

لم تكن كلمات الحب، تلك التي كتبتها سجيّة في رسالتها الثانية، كافية لتجعل زاجل الحب في صدر عبيد النزّاح أكثر سعادة وطلاقة، فقد عبرت في الوقت نفسه عن عدم تمكنها من لقائه في ذلك المكان.

«سنلح عليها..» غمز الشاعر على نحو أكثر لؤماً: «ستأتي يا ولد، لا تبتئس».

وكتب جميل الشاعر رسالة ثالثة، يلح على سجيّة بالحضور في الزمان والمكان المحددين. ومع المزيد من التذلل وكلمات الحب المتكلفة في الرسالة الرابعة والخامسة والسادسة والسابعة، استجابت سجيّة لإلحاح عبيد النزّاح الذي كان يمليه على الشاعر، فيكتبه هذا بطريقته التي يبدو أنها كسرت حاجز الخوف لدى الفتاة، فقررت الحضور.

«في الساعة العاشرة.. » ربّت الشاعر على كتف النزّاح قائلاً على طريقة ممثلي أفلام الوسترن بصوت غيرت نبرته السيجارة الهاي لايت النابتة بين شفتيه: «لا تنس يا ولد».

الساعة العاشرة.. الساعة العاشرة.. الساعة العاشـ....

لا يزال عبيد النزاح يردد ذلك التوقيت كما لو كان تسبيحاً، حتى جاءت الساعة العاشرة من ذلك المساء. كان قبلها قد تعطر على نحو مفرط، فمنذ أن رأى جميل الشاعر ينظف يديه بمنديل ورقي بعد أن

صافحه أول مرة، كما لو أنه يزيل قذارة علقت به، قائلا له بنبرة اشمئزاز: «يا أخي تعطّر، ما هذه الرائحة؟!» وهو يفرط في رش العطور الرخيصة التي يشتريها من ساحة أم البروم وسط العشار. ارتدى أجمل ما عنده من ثياب، وخرج في التاسعة تماماً، قبل الموعد بساعة قرر أن يقضيها واقفاً في رأس الشارع الذي يقع في منتصفه بيت أهل «سجيّة» التي من المفترض أنها ستمر من أمامه بعد ساعة إلا عشر دقائق، فيتبعها هو إلى المكان الذي سيلتقيان فيه، لكنه رأى شبحها يخرج من الشارع بخطوات، على الرغم من أنها كانت متسارعة، لكن أمكنه معرفة أنها هي، سجيّة، معشوقته التي لن يكون من الصعب أن يتعرف عليها حتى لو كانت تسلك، في عتمة ذلك المساء، الطريق إلى النهر راكضة. لكنه لم يتبعها، أو أنه حاول أن يفعل ذلك، إلا أن صوت جميل الشاعر، الصوت الداعر المضمخ برائحة العرق، نفسه تناهى إلى أذنيه بإحساس موبِّخ: الساعة العاشرة، لا تنس يا ولد! « فتسمر في مكانه في رأس الشارع، مثل نبتة شُتلت هناك على نحو سيء، أكل البرد أذنيه وأطراف أصابعه، بدأ يرتعش مثل قصبة ودمعت عيناه من صقيع تلك الليلة: «الساعة العاشرة، لا تنس ذلك أيها النزاح» ظلّ يردد مع نفسه: «الساعة العاشرة» لم يعد يشعر بقدميه، كأنه يقف على جذعين فقدا الإحساس بالأرض، فتحولا إلى خشبتين. أخرج من جيب سترته ساعة يدوية قديمة نُزع منها الشريط الجلدي المثبت، وعلى ضوء عود ثقاب كان قد أشعل به سيجارة رأى أن الوقت لا يزال مبكراً، هناك نصف ساعة متبقية. لكن أين ذهبت حلوته، فتاته، معشوقته الجميلة سجيّة؟ عود ثقاب آخر وربع ساعة متبقية، وسؤال أحمق كلما ضرب به رأسه ارتدّ مثل معول من أرض

صلبة: أين ذهبت تلك المجنونة، تلك الشقية الحسناء؟ عود ثقاب آخر وخمس دقائق متبقية وسؤال يولّد فيه ذلك الشعور المقزز الذي ينبئ المرء بنمو قرنين في رأسه: ترى أين ذهبت تلك العاهرة؟!

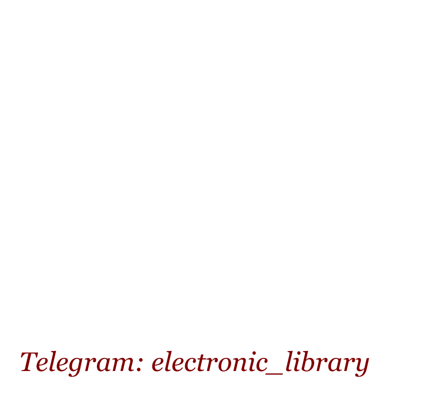
كانت حركته بطيئة مثل روبوت، أو راقص بريك دانس يؤدي عرضاً فاشلاً. وعلى طول المسافة من رأس الشارع إلى النهر كان زاجل قلبه يحترق، ويكاد يشم رائحة ريشه الكريهة، وهديله الذي أحس بأنفاسه وهي تنتشله وتقذف به مع البصاق ودخان السجائر والبخار الخارج من معدته التي بدأت تطلق قرقرة مزعجة. كان يترنم بكلمات مبهمة، ربما كانت أغنية أو لحن قديم حفظه من تلك الكاسيتات التي يشتريها لمطربين من الدرجة العاشرة. وإلى أن وصل إلى مكان اللقاء الموعود، كانت الساعة قد تجاوزت العاشرة بخمس دقائق. لمح من أعلى الضفة شبحان يخرجان من الزورق الخرب، أحدهما يضيء للآخر الطريق بضوء ولاعة هابط. وشيئاً فشيئاً رأى سجيّة متلفعة بعباءة، تمسك بيد جميل الشاعر ليساعدها على عبور الفراغ بين الزورق والضفة المعشبة، بينما كان هو واقف إلى جانب مضخة السقي، مثل تمثال ثور يشعر بالخزي. كانت سجيّة هي أول من اكتشفت وجوده هناك، تلعثمت بينما هي تكلم عشيقها بصوت أقرب إلى الهمس، غطت وجهها وهي تثب من أمامه، ورآها تبتعد بخطوات مسرعة حتى اختفت في عتمة الطريق، وحين أعاد نظره لفحت وجهه رائحة عرق ممزوجة بحموضة، لا بد أن جميل الشاعر تقيأ بينما هو يرتعش فوق سجيّة في الزورق. جميل الذي لا يبدو عابئاً بالكتلة الواقفة أمامه، والتي بدت أكثر نحولاً وبؤساً من ذي قبل، أشعل سيجارة من نار ولاعته التي ما تزال مشتعلة، قربها من وجه

النزّاح الذي تجمّد تقريباً، نظر إليه بازدراء، وشمّه قائلاً: «يا أخي تعطر، ما هذه الرائحة!».

لم يكن الخص الذي يعيش فيه النزّاح مع أمه بعيداً عن النهر، لكنه أحس كما لو أنه قطع ألف ميل حتى وصل إلى تلك الخرابة التي يدعونها بيتاً. لم يخلع ثيابه. ألقى نظرة على المرأة العجوز في الغرفة الصغيرة المجاورة لغرفته، سمع شخيرها وأنفاسها المتلاحقة كما لو أنها على وشك أن تموت. فكّر: لا بد أن صدرها في هذه الأثناء دافئ مثل حوصلة حمامة. تمنى لو يدفن وجهه فيه ويبكي، ويخبرها أن جميل شاعر الحيّ والمرأة التي يحبها استغفلاه، ضحكا عليه وشغّلاه مراسلاً لهما من دون أن يعلم. لكنه اكتفى بتنشقه رائحة الرطوبة والمسك والهيل وبقايا رائحة مزيج الحرمل والعلك المر والملح الذي أحرقته أمه في تلك الليلة. اتجه بعدها إلى السلم البليد المفضي إلى السطح، جلس على الأرض متكئاً على برج الحمام الزاجل، الذي ما أن سمع الجلبة التي أحدثها المربي حتى بدأ يصدر تلك النغمة الوئيدة التي من المفترض أنها هديل، لكنه كان مزيجاً غير متجانس من الأصوات، أشبه بالنحيب الخافت.

صباح اليوم التالي، حين لم تجد المرأة العجوز ابنها عبيد في غرفته، صعدت إلى السطح، بحثت بنظرها في الزوايا وداخل البرج لكنها لم تعثر عليه. لقد أحست ليلة أمس بمجيئه في ساعة متأخرة من الليل، كانت بين الصحو والنوم حين سمعت خطواته وهو يصعد السلم. لا بد أنه خرج مبكراً لعمل ما، أو هذا ما أنبأها به شعورها الزائف. كانت الشمس ترسل أشعتها إلى أسطح البيوت على نحو باعث على الدفء. اغترفت المرأة من سطل علف وضعه النزّاح هناك خليطاً من العدس

والحنطة والذرة الصفراء المجروشة ونثرته على سطح الأرض الترابية المتشققة، ثم فتحت باب البرج وأطلقت الحمام الزاجل المرح والفرح بالشمس والطعام. راحت تعد كما كان يفعل ابنها، واحد.. اثنان.. ثلاثة، وكما هي العادة منذ فترة ليست بالقصيرة، كان العدد ناقصاً، فقد توقف عند حدود الرقم (9) إذ لا يزال الزاجل العاشر يحبس نفسه في البرج، كما لو أنه اعتاد على ذلك، بعيداً عن الحياة في الخارج. الزاجل المريض نفسه، الذي يرفض الخروج، مفضلاً البقاء محشوراً في إحدى الزوايا، كئيباً، حزيناً، مصدراً هديله الذي يشبه النواح. حين مدت المرأة يدها لتتفحصه وجدته متيبساً، بارداً، وخفيفاً جداً، وقد فارق الدفء حوصلته.



السنوات المتخيلة مع كافكا

كنتُ ما أزال في العراق، حين قرأت رسالة فرانز كافكا إلى أبيه هرمان، وأُغرمت بها، هذا قبل أن تستهويني رواياته وقصصه، التي بدأت بقراءتها حين صرت مشرداً في دمشق فترة التسعينات. ومنذ ذلك الوقت، وحتى انتهائي لاجئاً في ألمانيا، كنتُ قد قرأت الكثير عن كافكا وعالمه الروائي، وبدأت، مدفوعاً بهوس غريب امتد طوال الأعوام الماضية حتى اكتسابي الجنسية الألمانية وإقامتي في منزل ريفي يقع في مدينة ديكَن دورف، بتأليف أول كتاب لي عن فرانز كافكا، وتحديداً عن روايته المسخ، وقد ساعدني على ذلك عملي كأمين مكتبة في المدينة.

لقد قرأت الكثير من الكتب، وسوّدت آلاف الأوراق وأنا أكتب دراستي عن تلك الرواية الصغيرة، التي تناولتها بالنقد والتحليل، ومن جميع النواحي الفنية والأسلوبية والنفسية والاجتماعية. كنت أكتب وأمزق مئات الصفحات، قبل أن أصل إلى خلاصة من عدة أسطر. وقد ملأت جراء ذلك العشرات من أكياس القمامة، ما عدا تلك التي تنتشر في أرجاء المنزل، خصوصاً في مكتبي الذي تعمه الفوضى الهادئة.

وطوال فترة كتابة الدراسة التي امتدت إلى أكثر من ثلاثة أعوام، وأطلقت عليها «حياتي المتخيلة مع كافكا» وقعت العديد من الأحداث

الغريبة الخارجة عن المنطق، أو هكذا خلتها في البداية، قبل أن اعتاد عليها بمرور الأيام وتصبح جزء من يومياتي مع الكتابة، وصرت أتعامل معها على أنها محض أوهام وتخيلات وتماهيات مع عالم كافكا الروائي وأجواءه وبطله المأزوم غريغوري سامسا الذي ألقى بظلال شخصيته المتوترة، القلقة، زالمرتابة عليّ، وأصابتني محنته بحالة من عدم التوازن والوسواس القهري والهلوسة وتخيّل ما لا يُعقل. حتى أني في كثير من الأحيان، حين كنت أستيقظ من النوم صباحاً، أول ما أفعله هو تحسس جلدي والنظر في المرآة لأتأكد أني ما زلت بشراً ولم أتحول إلى صرصار ضخم مقلوب على قفاه.

ومن بين كل تلك الأحداث والأوهام والأحلام والكوابيس والاستيهامات والوساوس والمفارقات والقصص التي عشتها طيلة السنوات الثلاث الماضية، هناك ثلاث قصص حدثت وكانت الأبرز، فارتأيت أن أرفقها كجزء من المقدمة التي وضعتها لدراستي عن رواية كافكا. وسأبدأ بقصة المنشّة التي حدثت في المكتبة التي أعمل فيها.

(1)

المِنشّة

اتفق في أحد الأيام، أن طلب شخصان رواية المسخ لفرانز كافكا في الوقت نفسه. وبصفتي موظف المكتبة الوحيد، قلت لهما بأن هناك نسخة واحدة فقط. لذا، توجب على أحدهما قراءتها، بينما سينتظر الآخر لبعض الوقت. فالرواية قصيرة، ويمكن إتمامها في ظرف ساعة

واحدة. وبما أن الزبونان رجل تشيكي لم يسبق لي رؤيته من قبل، وامرأة ألمانية اعتادت التردد على المكتبة باستمرار، فقد بادر الرجل قائلاً بنبرة تنم عن لطف ودماثة، على الرغم من الملامح القلقة التي ارتسمت على وجهه بكآبة:

«النساء أولاً».

شكرته المرأة على لطفه، بينما هي تتناول من على مكتبي مِنشّة بلاستيكية لطرد الصراصير الألمانية الصغيرة والمزعجة، وهو التقليد الذي عوّدت المكتبة زبائنها عليه. تناولت الكتاب، وجلست إلى الطاولة، حيث ركنها الهادئ المعتاد. في حين فكّر الرجل أن من الضروري قضاء تلك الساعة، التي خمنت انها ستكون كافية لقراءة المرأة للرواية، في المطالعة. فاستلّ كتاباً لدوستويفسكي: الإنسان الصرصار، وجلس إلى الطاولة نفسها، أمام المرأة التي أبدت انزعاجها على الفور. لكنها، على الرغم من ذلك، لم تغير مكانها، إنما استغرقت بالقراءة، التي كانت تقطعها بين حين وآخر، وتنظر أمامها على الطاولة، يدها على المنشّة الحمراء، وتبدو مستعدة لقتل أي صرصار يمكن أن يظهر ليزعجها في تلك الأثناء.

انقضت الساعة والمرأة ما زالت تقرأ، وتترقب ظهور الصراصير. وبانقضاء الساعة الثانية، كان الرجل قد أنهى كتاب الإنسان الصرصار، وبدأ الضجر بالتسلل إليه. فأعاد قراءة الكتاب مجدداً، في حين كانت المرأة تنعم بالقراءة والتفكير بإبادة الصراصير التي لم يظهر منها أحد حتى ذلك الحين. وإلى أن انتصف النهار، كان الرجل قد أعاد قراءة

الكتاب الذي بمعيته خمسة مرات. والمرأة مستمرة باضطهاده، ولا يبدو أنها ستنتهي عما قريب. وبمرور الساعات، حتى حلول المساء، عندما كانت المكتبة على وشك الإقفال، كان الرجل قد أعاد قراءة الإنسان الصرصار حوالي سبعة مرات. وفي كل مرة يتضاءل، ويفقده الصبر المرير مناعته. وقد أرعبه الشعور بأن ثمة قرني استشعارِ بدءا بالنمو في رأسه. وقشور لعينة راحت تغلف جسده. ورائحة كريهة بدأت تنبعث منه. مما أثار حساسية الأنف لدى المرأة القارئة أمامه، فانتبهت أخيراً، وبحركة مباغتة، سريعة، وقوية، هوت بِمِنشّة الذباب على رأسه، وهمّت بمغادرة المكان مزهوة بما فعلت، كامرأة أمازونية تخلصت مؤخراً من أحد المسوخ.

لحس الرجل إصابته، وهم ليغادر المكتبة هو الآخر. لكني استوقفته.

«تلك المرأة» قلت له هامساً: «تظن أنك صرصار هأ هأ!».

لم يرد الرجل. أمسك قلماً ناولته إياه، ليترك اسمه وتوقيعه في سجل الضيوف. ففعل ذلك بصعوبة وغادر مترنحاً، دائخاً من هول الضربة. وعندما رحت اتفحص أسماء زوار المكتبة في ذلك اليوم، لمحت اسماً غريباً أشعرني بحكة في جلدي:

غريغوري سامسا!

خرجت في إثره، لكنه كان قد اختفى وسط المارة في حينها. وبينما كنت في الطريق إلى المنزل، ورغم أن الأمر يبدو كمزحة، وبخت نفسي على افتراضي بأن ذلك الرجل هو سامسا نفسه، وأنه ربما عاد إلى مكانه بين طيات نسخة من رواية كافكا.

(2)

التحوّل

حدث ذلك في إحدى ليالي الشتاء الباردة، بعد مضي عام على الشروع بكتابة دراستي عن رواية كافكا. كنت منهكاً في حينها ونمت على الفور، فحلمت أني صرصار. نعم صرصار صغير يعيش مع عائلته في أحد المطابخ الدافئة، ويعتاش على النشا وفتات الكعك وبقايا الشحوم، وقد يضطر أحياناً إلى أكل الصابون والغراء ومعجون الأسنان.

كنت نائماً أيضاً في عالم ذلك الحلم، أو الكابوس المقزز. وعندما استيقظت من نومي الحُلمي ذاك وجدت أني قد تحولت إلى انسان.. وتحديداً إلى غريغوري سامسا ضخم وهائل. الأمر الذي أذهل أبويَّ فتوجسا منه خيفة. تحسسا بقرونهما الاستشعارية الخطر القادم، وهو إصبعي السبابة الذي هبط عليهما، ورحت أداعبهما به مثل كلبين مذعورين، بغية طمأنتهما. لكني، بمجرد أن لامستهما، حتى فرّا هاربين إلى إحدى الزوايا، وراحا ينظفان نفسيهما، وظهرا، أثناء ذلك، كما لو أني لطّخت رأسيهما بالبراز. ثم لاذا بالفرار، تملؤهما الحسرة على ابنهما الذي تحول إلى إنسان قذر كما يُهيأ لهما. لكنهما لم يقطعا أرجلهما عن المجيء للاطمئنان عليَّ، بين فترة وأخرى. وقد شقّ عليهما اعتيادي التدريجي على حياتي الجديدة. وشاهدا بألم كيف أني نسيت عالمي الحشراتي، وشرعت بمزاولة تلك الحياة البذيئة. وقد تغيرت عاداتي في المأكل والمشرب والمنام. كانا يشعران بالاشمئزاز، وهما يراقباني من

بعيد وأنا أعقد الصداقات مع البشر، من دون أن يملكا أدنى قدرة على منعي من ذلك الاندماج الرهيب في المجتمع البشري.

وفي يوم من الأيام، في إحدى تلك الزيارات، اكتشفت أمي رائحة غريبة كانت تنبعث من سريري.

«امرأة!» قالت وقد تملكها الغضب: «في فراش ابني امرأة!»

«ما الغريب في ذلك؟» سمعتي أبي يقول لها: «أنت تعلمين أن ابنك ما عاد صرصاراً، وها هو الآن يسلم نفسه إلى قذارة البشر تفووو!».

«لا بد أن نتدخل» قالت أمي مغمورة بحقد الحموات الأزلي على الكنّات زوجات الأبناء: «أنا أعرف شغلي معها تلك العاهرة!».

«لكنها ليست عاهرة كما ترين» ردّ أبي مشاكساً كعادته: «إنها زوجة ابنك البشري هأ هأ».

«وإن يكن» صاحت الأم بوجه زوجها، ناهرة إياه: «أوليست بشرية إنسية قذرة؟».

هرعت أمي إلى غرفتي. انتظرت حتى انتهينا أنا وزوجتي من معاشرتنا الجنسية، وتسللت إلى سرير الزوجية. وهي تعرف جيدا من هم قاهري النساء على أية حال: الصرصور، الفأرة، أبو بريص، والرجل طبعاً! تسلقت ردف الزوجة التي كانت ما تزال نائمة على جنبها، وقد دست إحدى يديها تحت الوسادة. فلم تشعر بدبيب حموتها وهي تنتقل من ردفها إلى خصرها، ثم عبر ذراعها إلى رأسها، قبل أن تقفز إلى وسادتها، وتقف أخيراً أمام وجهها.

فجأة.. وبحركة سريعة، مباغتة، فتحت الكنّة عينيها، وأخرجت يدها من تحت الوسادة. كانت تمسك عبوة مبيد حشري، رشت منه على أمي وأردتها قتيلة في الحال.

(3)

الجارة النازية

انقضت السنوات الثلاث واقتربت من نهاية الدراسة.

كل هذا الوقت، وأنا أخفي عن جارتي الألمانية الجميلة، ذات الميول النازية، التي تشبه إيفا براون كثيراً، وتملك كلباً يُدعى فرانز، شغلي وبحثي في عوالم كافكا، لأتلافى بذلك ردود الفعل العنصرية التي ما زالت قائمة بين النازيين واليهود منذ الهولوكوست الشهير حتى أيامنا.

بمرور الوقت، ألحقت جارتي النازية اسم كلبها فرانز باسم ثانٍ، إذ راحت تناديه فرانز كافكا. بعد أن ضبطته وهو يأكل الصراصير. وسألتني عما إذا كنتُ أعرف غريغوري سامسا، ثم قالت وهي تنظر بريبة إلى منزلي: «ترى من أين تأتي تلك الصراصير اللعينة!».

وفي يوم من الأيام، كنت أقرأ في كتاب «هل ينبغي إحراق كافكا» لبديعة أمين جلبته معي من دمشق، طُرق الباب، وكانت تلك جارتي النازية الجميلة. استقبلتها بابتسامة، فردت عليّ بصوت أشبه بالنباح، كأنه عبّر بطريقة أو أخرى، عن الصيغة الأنثوية لهتلر، قائلة بعصبية، أن الصراصير نقلت العدوى لكلبها، وهو الآن طريح الفراش بسببي.

«وما شأني أنا بالصراصير يا سيدة إيفا براون؟!».

وكما لو أنها تلقت مديحاً، حينما حاولت محاكاة الجرماني الأصيل وهو ينطق اسم إيفا براون، شمخت بأنفها عالياً، بينما هي تشير إلى منزلي قائلة:

«لأنها صراصيرك القبيحة يا سيد. لقد تعقبت الكلب إلى حيث ترمي نفاياتك، ورأيت ذلك بعيني!».

فخيّل إلي أنها ستغرز سبابتها والوسطى في فصي عينيَّ حقاً، كما كان يفعل أسيادها النازيين بالسجناء من قبل. سمعتها بعد ذلك تقول:

«ربما عليّ أن أحرقه».

«تحرقين من يا امرأة؟».

«كافكا!» ردت بنبرة لا تخلو من الجد «إنه مصاب بالانكلستوما وربما عليَّ أن أحرقه!».

فقلت لها معترضاً:

«وهل ينبغي إحراق كافكا؟!».

ذروق التنين

(1)

«لو لم تفعل أمريكا شيئاً سوى صناعة الشطة، لكان ذلك أفضل إنجازاتها!».

يقهقه زملاء سراج الدين الملتحفين بقمصلات عسكرية. كانوا يجلسون حول جذع نخلة مشتعل، قريباً من النهر، في ليلة آذارية باردة. ثمة عيارات نارية بالكاد يسمع صوتها في الجوار، فكل شيء مسيطر عليه تقريباً من قبل الثوار، كما تشيع ذلك إذاعة العراق الحر على الموجة القصيرة، بين فترة وأخرى:

«هل تعلمون؟» ينبري سراج من مكانه، حيث يجلس على صفيحة سمن، ليس بعيدا عن النار، فيلتفت إليه الآخرون باهتمام ضئيل، متوقعين الترهات نفسها التي اعتاد أن يتفكه بها، كلما ساد الصمت بينهم، فقال قبل أن يطلب أحدهم أن يلعنوا الشيطان، لأنه يستغل فترات الصمت المبهمة تلك والمفاجئة التي تسود بين أكثر من ثلاثة أشخاص:

«القنبلتان النوويتان اللتان ألقاهما الأمريكان على هيروشيما وناكازاكي هما بالحقيقة عبوتا شطّة حارة ماركة الديك الأحمر!».

أحياناً، يخرج عن الإطار الذي يظهر فيه، كأنه ستاند آب، يروي يومياته الهزلية عن الشطّة والأكل الحار، بطريقة تفتقر إلى الحرفية، ويجنح نحو الجدية، بينما هو يفصح عن أمنيته، للمرة الألف، بالهجرة إلى أمريكا، والعمل في مصانع لويزيانا الشهيرة، ويعيش هناك عيشة رغيدة، قريباً من روائح التوابل الحارة والشطة اللذيذة والأشهر في العالم.

«لماذا لا تذهب إلى الهند؟» يسأله أحدهم ساخراً بمرح: «هناك حتى الآيس الكريم حار، من المؤكد أنك ستتحول إلى تنين يا صديقي».

تلمع في السماء اطلاقات وتخبو سريعاً. يتفرق الأصدقاء كلّ إلى بيته. وفي صباح اليوم التالي يستيقظ سراج الدين على صوت لغط في الشارع، قبل أن يفهم من زوجته أن الثوار فتحوا مخازن المؤن على ضفة الشط للناس، لكي يأخذوا من الأغذية المخزنة فيها، والتي نُهبت من الكويت في وقت سابق، بعد احتلالها من الجيش العراقي. فكّر سراج بالذهاب إلى هناك، لعله يحصل على صندوق شطة، أو كمية من التوابل الحارة، لا بد أن تكون مخزونة في ذلك المكان. هرع من فوره، ووصل سريعاً، إذ لم تكن المسافة بين المخازن وبيت ذويه طويلة. حشر نفسه بين حشود الناس الذين راحوا يتناهبون مختلف السلع الغذائية، رز، طحين، فاصولياء، عدس، بُن، حليب، نشاء، سمك معلب، زيتون، مخلل، صابون، مساحيق تنظيف، شوكولا، علكة. كل تلك الأشياء لم ترق لسراج الدين، فقد كان يعرف ما يبحث عنه، وقد عثر عليه أخيراً في أحد المخازن، وهو ذلك النوع المعتق من الشطة الحارة، التي يبول منها الحمار دماً، كما يتبجح أمام أصدقائه دائماً.

كان هناك بعض عبوات الشطة الزجاجية المكسورة، التي أثارت رائحة تحرق العيون، وتتحسس الأنوف من قوة لذعها، وعلى ما يبدو انها هي التي قادت سراج الدين من أنفه إلى ذلك المخزن. وفضلاً عن صناديق الشطة، هناك الكثير من التوابل الحارة المستوردة من الهند، وصناديق كجب حار، وفلفل أخضر معلب نقل منها سراج كميات كبيرة أثارت حنق زوجته، ففي الوقت الذي كان الأزواج ينقلون إلى بيوتهم الرز والطحين والعدس والسمن، كان هذا المخبول يقضي نهاره كاملاً بنقل نيران الأمعاء تلك، ويملأ بها البيت الذي أصبح بقعة متبّلة من جهنم، حسب إفادة جاره التي أدلى بها في مديرية الأمن العامة، حينما اعتقل سراج الدين بعد استعادة المدينة من الثوار بتهمة المشاركة في انتفاضة آذار 1991.

(2)

عندما كان في الثانية من عمره، غافل أمه على الغداء وأكل إصبع فلفل حار. تفلفل فمه، ودعك عينيه، فكادتا أن تحترقا، آلمه لذع الحرارة، إلى حدّ تصور معه الأب موعان البُن الذي يكسو حدقتيه، فغطس رأسه في طشت ماء، وأجبره على فتح تلكما العينان اللتان وجدت الجدة طريقة أقل عنفاً لتبريدهما، فقد وضعت فص ثلج في قماشة وراحت تمسح به على جفنيه وتنفخ عليهما، بينما هي تقرأ: «يا نار كوني برداً وسلاماً على إبراهيم» وكمن يلهو عن خوفه بِعدّ الخراف، كان سراج ينشج مترنماً بالكلمات التي رافقت خطواته الأولى المتأخرة:

«تاتي.. توَّاتي».

تكررت الحالة في سنته الثالثة مرتين، الأولى مع أصبع فلفل أخضر، والثانية مع شطة فلفل أحمر، لكنه كان أقل تضرراً في الحالتين، وصار أقرب إلى الاعتياد في المرات التي تلتها. إلا أن العلامات الأولى لنهمته ظهرت في أحد الأيام، حينما بلغ العاشرة من عمره، التهم سندويتش فلافل، كان رفيقاه قد دسا فيه ثلاثة أصابع فلفل، آملين أن تحرق فمه، ويكون ذلك مقلباً لن ينساه مدى الحياة. إلا أن شيئاً لم يحدث لسراج، حتى أنه لم يلحظ أن سندويتشه ملغوم بتلك الكمية التي تكاد أن تكون كافية، لجعل الدخان يتصاعد من رأسه وأذنيه. كان يأكل بمتعة، كما لو أن الحياة صارت أجمل، بينما هي تحترق من فمه حتى شرجه. وحين سألاه إن كان ثمة شيء يحترق في بطنه، نفى ذلك، وقال أنه لم يذق طعاماً ألذ من ذلك السندويتش.

بمرور الوقت، صار سراج الدين لا يجلس إلى مائدة تخلو من الطعام الحار. وقد أكسبه ولعه بالفلفل ومشتقاته لقب «الهندي» الذي صار ينادى به حتى في البيت، من قبل أفراد اسرته، فضلاً عن المدرسة وساحة الكرة، أو حينما يعوم مع زملاءه في مياه النهر. الأمر الذي لم يكن ليثير استياءه، أو يقلل من كونه عراقي الأم والأب، وسليل أجداد ضربت جذور عراقيتهم في أرض البصرة منذ مئات السنين. فكما يناديه الآخرون بهذا اللقب ـ الذي لا يدعي نسبته إلى الهند، أو تشبيهه بالهنود من ذوي السمرة الكالحة، بقدر ما يؤكد ذلك على نهمته غير الطبيعية تجاه الأكل المفرط بالحرارة ـ فإن هناك الكثير غيره ممن يُنبزون بألقاب أخرى، كـ«بُلّة الصيني» الذي لا يقتني سوى السلع

الصينية الرخيصة، و«عباس النرويجي» الذي كان مقيماً في النرويج وطُرد منها بعد خروجه من السجن، حيث أمضى عقوبته هناك بتهمة التحرش الجنسي بالأطفال، و«عطية الأفريقي» الذي يدعي أنه يستورد مساحيق التنشيط الجنسي من أفريقيا.

(3)

«تكلم هيبيي!» يزعق ضابط التحقيق بوجهه الذي اختفت ملامحه خلف فوضى الدم والشقوق وآثار بوكسات الحديد: «أنت عراقي؟».

يقسم سراج الدين المحشور في زاوية معتمة من غرفة تحت الأرض، بالمقدسات والأولياء الصالحين، أنه عراقي، وأبوه عراقي، وأمه عراقية، وأن عراقيته تجتاز جده السابع عشر إلى كَلكَامش. يفعل ذلك بينما هو يحشر رأسه بين ركبتيه، ليتحاشى المزيد من بوكسات الجلّاد الذي كان يكرر كلمة: «اعترف كلب» مع كل بوكس ودمغة ورفسة يومئ مرؤوسه بتوجيهها.

«بماذا أعترف؟».

«بأنك هندي» يجيبه الضابط بلهجة آمرة لا تخلو من وعيد بتهشيم أسنانه إذا ما انكر هذه المرة بأنه هندي جلف جاء من وراء البحار، من بلاد القرود والفيلة والتوابل الحارة، وملء مساماته رائحة ثوم زنخة يريد أن ينتن بها البلد: «اعترافك سيوفر لك تسفيراً عادلاً إلى بلدك، بدل أن تموت هنا مثل كلب.. أعدك».

هل يمزحون معه؟ أم يضحكون على عقله، لكي يقول لهم أنه هندي

فعلاً، ثم يسوقونه إلى المشنقة بعد ذلك، ومن أجل ماذا؟ من أجل شطة وتوابل لعينة مهمتها في هذه الحياة هي تقريح المعدات، وإحراق الأمعاء والبشروج، وتحميص البواسير. فطوال حياته، بدلاً من أن يلهث وراء النساء، مثله مثل أغلبية الذكور، راح يعشق الشطة. وإذا أعجبته امرأة وصفها بأنها حارة مثل شطة، كأنه يصف ظهيرة تموزية من ظهيرات البصرة القائظة، وليس امرأة جميلة غمزت له، فكان من سوء الحظ الذي رافقها في ذلك اليوم، أن شخصاً نعتها بذلك الوصف، فأحست كما لو أن لذعاً اخترق طبلتي أذنيها بإحساس لاهب.

قال بصوت يائس منهك خرج من بين ساقيه: «لكني لست هندياً!».

ابتكر جلاده طريقة جديدة بالتعذيب:

«سأرى إن كنت هندياً حقيقياً أم مزيفاً يا عبد القضيب» يقول له الجلاد.

«هل ستشنقني؟» يسأله.

«لا، سأقيس هنديتك فقط» يجيبه الجلاد وملء فمه قهقهة خبيثة.

كان يحدث جروحاً في جسده ويمرر عليها اصابع فلفل شديد الحرارة، وعادة ما تكون تلك الجروح في ظهره، لكي لا يطول لسانه طعم الفلفل. الأمر الذي كان عذابه أمض عليه من تبضيع ظهره بموس عمليات جراحية، إذ كان سراج يبكي حسرة لمجرد أنه لا يستطيع لعق جراحه، والحصول على تلك اللذة العارمة التي توفرها حرارة الفلفل.

«الآن، أثبتت أنك هندي بمعنى الكلمة!».

(4)

بعد عام قضاه سراج الدين في السجن، قُتل خلاله أغلب المعتقلين الذين كانوا معه من دون محاكمات، أو ماتوا من فرط التعذيب، صدر بحقه حكماً بالإعدام شنقاً حتى الموت. مرض، نحل، وبرزت عظام وجهه على نحو ما يبدو عليه ضحايا المجاعات، حتى أن سجانيه أشفقوا عليه، وتوقعوا موته قبل أن يصل إلى حبل المشنقة. لم يزره أحد من أهله طوال فترة سجنه، باستثناء زوجته التي، كما لو أنها تكلفت عناء تلك الزيارة لا لأجل شيء، سوى سماع وصيته المتكررة بالحفاظ على كنزه الجهنمي، سائل الجحيم ومساحيقه الكريهة، عشقه الأول والأخير الذي أخلص له وتفانى من أجله، وها هو الآن يقذفه بذروق التنانين الملتهب. وهي منذ ذلك اليوم، قبل ثمانية أشهر، لم تعد لزيارته أبداً.

قضى سراج ليلته الأخيرة، في زنزانة تضم محكومين آخرين بالإعدام. سمع أحدهم يرتل بصوت متهجد: «يا نار كوني برداً وسلاماً على إبراهيم» كما لو أنهم سيقتادونه إلى المحرقة، وليس إلى حبل يتدلى من علوّ وينتهي بأرجوحة الموت التي تسمى شناطة. تذكر جدته، والمرة الأولى التي أحرق فيها الفلفل حلقه وعينيه، وكمادة الثلج التي كانت تمررها على جفنيه وهي تقرأ تلك الآية القرآنية. دمعت عيناه، تمنى لو يتوقف قلبه في تلك اللحظة، وكانت أمنيته الأخيرة أن يتذوق من شريحة مانجا حارة متبلة بالخردل. فاجئه صوت جهوري حاد وهو ينادي: «ابراهيم اسماعيل ناجي!» فنهض السجين الذي كان يطلب بتوسل من النار أن تكون برداً وسلاما على ابراهيم،

نهض متثاقلاً، واقتاده حارسان عبر الممشى المبلط بكونكريت صقيل إلى غرفة الإعدام. لم يكن يعرف سراج تسلسله، وربما لم يعد يعبأ بذلك ما دام أنه سيموت في النهاية. لكنه، وبعد أقل من ثلاثين دقيقة، سمع صوت المنادي نفسه يتلفظ اسمه بنبرة إعلانية، كأنه يكشف بذلك اسم احد الفائزين بقرعة.

اقتاده نفس الحارسين. كانا يمسكانه من ذراعيه، متهالك القوى، بالكاد يتنفس، يسح بقدميه على أرض الممشى المفضي إلى غرفة الإعدام.

«أشكر ربك يا رجل» قال المنادي بأسماء المحكومين. كان يمشي وراءهم بكامل قيافته، حليق الذقن، كث الشارب، تنبعث من ثيابه رائحة قولونيا لاذعة: «أشكر معبودتك البقرة أن لكم بلاداً تحترم الإنسان مثل الهند، وتقدر مواطنيها إلى هذه الدرجة. فعلى الرغم من عدد نفوسها الهائل ـ مليار؟ أليس كذلك يا عبد البقرة؟ ـ لكنها طالبت بحياتك. لا بد أنك شخصية مهمة، لكي يطالب بك رئيس وزراء بلد عظيم مثل الهند، أم أنا مخطئ؟. صحيح، يقال أن بعضكم يعبدون الأعضاء التناسلية! هل حقاً؟ هل حقاً ذلك؟ أم أنكم تفعلون ذلك لمجرد رغبتكم بالتقبيل؟».

اجتاز الحارسان غرفة الإعدام، ودخلا به ممراً آخر يفضي إلى رحبة، حيث تنتظره هناك سيارة مرسيدس بيضاء، وثمة رجل بالزي الرسمي، ذو سحنة سمراء، يلصق باطنا كفيه ببعضهما، إلى مستوى الصدر، مبتسماً، هازاً رأسه بثناء أمام ضابط أمن عراقي من دون رتبة.

«لا تنس يا عبد البقرة « همس حاجب الموت في أذن سجينه السابق مودعاً»: سلّم لي على اميتاب باتشان!

صبي الزمن

كان مُنح يقف في ركن الزقاق، متكئاً على عمود الإنارة. يشفط من دخان سجائره ماركة سومر سن طويل. في يده مسبحة كهرمان، يفركها بين كفيه ويشمها كل حين، بينما هو يردد:

«دنكَ يا حلو لا يلوحك القنّاص».

وهو مطلع أغنية شعبية ذاع صيتها في ثمانينات القرن العشرين، منسوبة إلى مطرب شهير متهم بالمثلية الجنسية ويُخاطب الفتيان الحلوين في أغانيه، يُقال أنه سُجن بسبب تلك الأغنية، فقد كانت تسخر في أحد مقاطعها المزورة من الحرب التي كانت قائمة في حينها مع إيران.

كلما مر من أمامه صبي من صبيان الحي، يومئ له أن تعال. فيقترب هذا منه متوجساً، ليقول له مُنح بصوت هامس، بعد أن يتلفت يميناً ويساراً:

«لديّ طيور حب جميلة وملونة في برج الحمام فوق سطح الدار. هل نذهب لرؤيتها؟ سأعطيك واحداً».

إلا أن الصبيان كانوا يتملصون منه بطريقة وأخرى. إذ لا يخفى على أحد منهم من يكون مُنح هذا.

وعدا هذا المكان، يرتاد مُنح دور السينما، يجلس في المقاعد الأخيرة وينتظر هناك فريسته، التي عادة ما تكون أحد المراهقين الهاربين من المدارس، طمعاً في مشاهدة المقاطع الخليعة المقحمة في أحد الأفلام، وكانت تلك واحدة من الوسائل التي كانت تنتهجها دور السينما من اجل جذب أكبر عدد من الشبان الصغار المهوسين بالعادة السرية، وبتواطئ من السلطات الرقابية.

في صباح أحد الأيام، كان مُنح واقفاً في مكانه المعتاد، يغازل الرائح والغادي من صبيان الحي بكلمات الأغنية الشهيرة، فمرّ من امامه صبي أسمر يصوّت بفمه ويقلد تغريد العصافير، يبدو في العاشرة من عمره، بشعر سبط وذؤابة تتدلى على عينه اليسرى. استوقفه مُنح بذريعة سؤاله عن الطريق إلى السوق، وألقى بطعمه إليه. بدا الصبي متردداً في بداية الأمر، وراح يتحرى بشأن الطيور، وما إذا كان من بينها كناري أو ببغاء يتكلم، قبل أن يوافق على اصطحابه إلى برج الطيور فوق سطح داره، ليريه طيور الحب الملونة.

«لكن» قال الصبي على نحو ينمّ عن دراية بما يخبئه له مُنح في برج الحمام: «يجب أولاً أن أريك شيئاً».

استغرب مُنح ذلك وتوجس من الأمر. وكان قد لاحظ إلى أي حدّ يبدو لمّاحاً وذكياً ذلك الصبي الوسيم صاحب الذؤابة. ربما أحسّ بما يضمره له، وصار في نيته تسليمه إلى الشرطة. حاول استمالته مجدداً، لكن من جدوى، فقد كان مصراً على أن يريه شيئاً قبل الذهاب معه إلى برج الطيور، فلم يكن أمام مُنح في تلك الأثناء سوى الخضوع، مأخوذاً بوسامة الصبي ذو الذؤابة.

«وما هو هذا الشيء أيها الصبي الحلو؟» قال له مُنح، وقد لامس أنفه بسبابته، وبدا في حينها كما لو أنه يطرد ذبابة:

«اتبعني وستعرف» قال الصبي وراح يغذّ السير، بينما مُنح يتبعه على مضض.

طيلة الأعوام الماضية والصبيان يتبعون مُنح، هذه هي المرة الأولى التي يحدث فيها العكس، حيث الفريسة تقود المُفترِس إلى حيث لا يعلم. وهو ما أزعجه كثيراً، وكان كلما أوشك على التوقف، التفت إليه الصبي وغمزه بطرفه، كأنه يحثه على التحمل والمطاولة، يفعل ذلك على نحو سحريّ مغرٍ يدفع مُنح إلى مواصلة المسير في إثره، فيبدو في حينها كما لو أنه يُقاد من نقطة ضعفه أو اليد التي توجعه، خانعاً، مستسلماً، وغير عابئ سواء كان الطريق الذي صار يسلكه سيفضي به في نهاية المطاف إلى السرير أو إلى حتفه.

هكذا، وجد مُنح نفسه منقاداً وراء الصبي الوسيم ذو الذؤابة، غريب الأطوار، الذي عاد إلى محاكاة تغريد العصافير، بينما هو يدس يديه في جيبي بنطلونه، ويركل بقدمه ما يصادفه من حصى الطريق. وكان كلما أحس بتباطؤ مُنح يلتفت إليه ويرسل إليه غمزته، وأحياناً يعض شفته السفلى في إشارة تحفيزية أخرى تفعل فعلها على الفور، وتبثّ النشاط في الرجل الذي عاد هو الآخر إلى الغناء بصوته الأخن، فراح يردد كلمات أغنية أخرى للمطرب الشعبي نفسه:

«حبيبي أمك ما تقبل من أحاجيك.. روحي معلقة بيك».

لم يبقَ مكان في البصرة إلا ومرا فيه. في الأزقة الملتوية، والأسواق.

في الدرابين الضيقة، والشوارع الكبيرة، وعبر الجادات العريضة، والساحات العامة. كانا يخرجان من حرب ليدخلا في أخرى. زارا كل الثورات والمجاعات والأزمات وموجات الحر والبرد والأوبئة، ورأيا مئات الآلاف من الوجوه المألوفة. وفي كل مرة يسأل مُنح الصبي:

«وصلنا لو بعد؟».

يأتيه الجواب: «بعد شوية للجعب!»

وحين يسأله ما هو هذا «الجعب» يصمت الصبي ويكتفي بالصفير أو بقوله:

«اتبعني فحسب»

فيفعل مُنح ذلك رغماً عنه، من دون أن يعرف كم مضى من الوقت وهو يلهث وراء ذلك الصبي الغامض، يوم، اسبوع، شهر، عام، عشرة أعوام؟ وما هي المسافة التي قطعاها حتى ذلك الحين. لقد فقد الإحساس بالزمن، وصار يشعر بالتيه في بعض الأحيان. كان يقنع نفسه بأن المغامرة تستحق، ولا بد من الربح والظفر بالصبي في النهاية، حين يصلان إلى ذلك «الجعب» المجهول الذي لا يعرف أيضاً ما هو بالضبط، هل هو مكان أم زمان، أم شيء خارج حدود الاثنين.

وطوال تلك الرحلة، كان مُنح يحاول تذكر ما إذا كان قد تسكع في تلك الشوارع، ومر بتلك الأماكن، وعاش تلك الأزمات، وعاصر أولئك الناس، وخاض تلك الحروب من قبل، لكن دونما جدوى. فكل شيء كان يمرق بذاكرته مثل الأحلام. كومضات تخبط في رأسه، ثم سرعان ما تختفي، فلا يبقى منها سوى الرائحة. رائحة الماضي.

كان مُنح يتضاءل طوال مسيره وراء الصبي، لكنه لم يشعر بالتعب، الأمر الذي زاد من حيرته، وكان كلما عاد وسأل الصبي:

«وصلنا لو بعد؟»

يقول له الصبي:

«بعد شوية للجعب!»

كان يتذمر فقط، ويظن أن الصبي يعبث معه، لكنه صار يعرف اللعبة مؤخراً واعتاد عليها بمرور الأعوام. وكانت غمزة واحدة من الصبي أو عضة شفة كفيلة بإعادة الدم إلى الجريان في عروقه، وإتمام المتبقي من تلك الرحلة الطويلة. وكان كلما التفت وراءه أيقن أن ليس ثمة مجال متاح للتراجع، أو حتى التفكير بطلب وقت من أجل الراحة. صار يشعر بتضاؤله، وظن أن ذلك يحدث بفعل المسير المتواصل، ثم اكتشف بعد سنوات أنه يصغر ويعود إلى صباه، حتى إذا بلغ في النهاية حداً يمكن للمرء التكهن، في حينها، أنه في الثانية عشرة من عمره، عاد وسأل الصبي سؤاله المعتاد:

«وصلنا لو بعد؟»

فيجيبه هذا: «بعد شوية للجعب!»

في المرة الأخيرة، عندما سأله السؤال نفسه، أجابه الصبي:

«وصلنا»

وكما لو أنه تلقى نبأ وصوله إلى مدينة الملاهي، توقف مُنح قائلاً بسعادة كبيرة:

«هل أنت متأكد؟»

أومأ الصبي برأسه ثم أشار بيده إلى ركن زقاق قديم كانا على وشك بلوغه، ثم اختفى مثل حلم.

حينذاك، لم يجد مُنح أمامه سوى مواصلة الرحلة حتى الرمق الأخير. فراح يقطع، بخطى متثاقلة المسافة القليلة المتبقية للوصول إلى ركن الزقاق، ليرى هناك رجلاً يكاد يبلغ الخامسة والخمسين، يتكئ على عمود إنارة. يشفط من دخان سجائره ماركة بغداد سن طويل. في يده مسبحة كهرمان، يفركها بين كفيه ويشمها كل حين، بينما هو يغني:

«دنكَ يا حلو لا يلوحك القنّاص».

ارتاب مُنح من شكله، فأراد مواصلة السير. إلا أن صوت الرجل المريب كان ينادي وراءه في تلك اللحظة:

«هيييي أنت أيها الصبي»

اقترب منه مُنح. راح يتلفت يميناً ويساراً. ثم قال هامساً:

«لديّ طيور حب جميلة وملونة في برج الحمام فوق سطح الدار. هل نذهب لرؤيتها؟ سأعطيك واحداً»

حك الصبي مُنح رأسه موافقاً، وقال:

«لكن.. يجب أولاً أن أريك شيئاً»

«وما هو هذا الشيء أيها الصبي الحلو؟»

«اتبعني!»

قارئ جورج أورويل

كالعادة، وفي كل مرة يلتحق ستار جبار إلى وحدته العسكرية في البصرة، يتحاشى الالتفات وراءه، حيث تقف أمه السبعينية الممتلئة عند عتبة الباب، بثيابها السود وعصابتها التي لم تنزعها عن رأسها منذ أن تلقت خبر فقدان ابنها البكر في القاطع الشمالي، بداية الحرب مع إيران. كان يسمع فقط صوت الماء الذي ترشه خلفه، الفعل الذي تظن الأمهات العراقيات أنه سيجلب الفأل الحسن لأولادهن الملتحقين إلى الجبهات الأمامية، أحياناً تعلق بعض ذرات التراب الممتزج بالماء في بسطاله، أو يتبلل بنطلونه الكاكي. يتصور وجه أمه في تلك اللحظات، لونه المائل إلى الصفرة، تجاعيده، الخدوش التي تتركها أظافرها على خديها كلما نطق أحد باسم ولدها الذي لا يزال في عداد المفقودين، عينيها اللتين توشكان على الانطفاء، وقد جفتا من الدمع، ولم يعد بالإمكان تمييز ما إذا كانت تبكي حقاً أو تصطنع البكاء أثناء نوبات حزنها.

ركب ستار إحدى الحافلات المتجهة إلى البصرة. كان كراج النهضة مليئاً بالجنود الملتحقين إلى ثكناتهم، بعضهم مخمورين، يدخنون، أو يأكلون سندويشات، يعلكون، يتبولون على إطارات السيارات، أو ويتوارون عن أعين الانضباط العسكري الذين يتجولون في الجوار

بقيافة مفرطة وبيريات حمر مائلة وهراوات يطوحون بها في الهواء بداعي التخويف. في حين يبدو الإحباط والشعور الرهيب باللا جدوى ظاهرين على البعض الآخر، وقد أكلت أذهانهم الصور الفظيعة لأجسادهم الممزقة في الخنادق والأنهار وعلى الجبال، فكرة أن هذه هي الرحلة الأخيرة باتجاه الموت، الرحلة الأخيرة وشبه المؤكدة. غصت الحافلة بأكثر من خمسين جندياً، بينهم المؤمن الذي استأنف تسبيحاته وصلواته وراح يترنم بالآيات والأدعية، وفيهم الملحد الذي لا تراوده في تلك الأثناء سوى فكرة أنه من العدم جاء وإليه سيعود، والسكير الذي أباد الفكرتين ببخار المشروب المتصاعد إلى رأسه، يعلك، أو يدخن السجائر، مرة يشتم، ويرق قلبه مرة أخرى، ما أن يسمع آذان الفجر المنبعث من منارات الجوامع، حينما تمر الحافلة بالقرى على جانبي الطريق، والتي تبدأ بعد الخروج من بغداد، صعوداً نحو الجنوب.

كان الوقت شتاء، وكانت التدفئة لا تعمل، فقد سبق أن نبّه السائق الجنود إلى ذلك، لكي يتلافى تذمرهم فيما بعد، وعلى الرغم من شدة برد كانون الأول، وبفضل الازدحام والأنفاس المتلاحقة لأكثر من خمسين جندياً أصبح الجو في الحافلة دافئاً بمرور الوقت، الأمر الذي أثار اشمئزاز البعض ممن لم يحتملوا روائح الأبخرة الكريهة، روائح حموضة وفساء وبول وقيء وافواه تتجشأ واخرى تعفط في مزاح يائس، عدا روائح التبغ المحترق التي أثارت موجة من الاختناقات والشتائم.

كان ستار يجلس في منتصف الحافلة، على مقعد إلى جنب النافذة، يحشر نفسه في قمصلة كاكية بكبّوس مبطن بالفرو غطى به رأسه الأقرع فضلاً عن كليتة عسكرية من الصوف، ليحميه من نوبة صداع نصفي

مفاجئة اعتادت أن تصيبه منذ أن كان في الصف السادس الإعدادي. وكان يجلس إلى جانبه جندي يقرأ كتاباً، وكان يتأفف باستمرار كلما حجب أحد الجنود الذين يقفون في الممر ضوء المصباح الخافت في سقف الحافلة. يبدو صغيراً، أصغر من عمره الذي يمكن إيجاده في بطاقة الهوية، والذي قررت الحكومة بموجبه إرساله إلى القتال في الجبهة، غير عابئة ببنيته الجسدية الهزيلة، الهشة المتكومة مثل عظام بليدة في بلوز عسكري وبنطلون كاكي وبسطال اسود ونطاق يكاد يقسمه إلى نصفين.

«ماذا تقرأ؟»

سأله ستار الذي كان قد حجز له المقعد إلى جانبه، بعد أن رآه عبر النافذة، يقف جانباً، ينظر ببؤس إلى الجنود المتزاحمين على باب الحافلة، يضرب أحدهم الآخر بالمرافق، ويتبادلون الشتائم والبصاق، ويتدافعون بعنف ربما يفتت عظامه، إذا ما قرر أن يحشر جسده النحيف بينهم ليحصل على مقعد.

«المخلوقات الوهمية» رد صاحب الكتاب بصوت لعثمته حنجرة مليئة بالبلغم: «خورخي لويس بورخس».

«اسم غريب...» قال ستار وفي صوته نبرة كأنها تمهد إلى نكتة، ثم تابع: «يبدو مثل شجرة خوخ!» وأطلق ضحكة مصطنعة خافتة وغير مبالية باستياء قارئ بورخس، بورخس الذي ربما سيمتعض هو الآخر من تلك الدعابة، بينما هو يُقرأ بين روائح الأبخرة والبساطيل النتنة.

لم يقل قارئ بورخس شيئاً، تأفف بصوت مسموع هذه المرة،

حينما خيم على دفتي كتابه ظل الجندي الواقف فوق رأسه. في حين كبح ستار حسه الفكاهي الفاشل بحمحمة وكحة مزيفة، وادار وجهه صوب النافذة، هناك حيث بدأت أولى بوادر الصبح، وصار المشهد في الخارج مرئياً، فمسح الزجاج المندّى بكم قمصلته وراح ينظر بعينين عادتا لتكتسيا بحزن سيظل يرافقه طيلة بقاءه في الثكنة، أو ربما خلف أحد السواتر الأمامية، أو على تلّة مثل بعير، ينظر إلى المشاهد الخاطفة على جانب الطريق، مثل أحلام تمر بسرعة، في أجزاء أقل من الثواني، لكنها تتباطأ أحياناً كلما حدق بنظرة بعيدة، أو كلما خففت الحافلة من سرعتها، فيرى من هناك المساحات الواسعة المزروعة بالحنطة والشعير، رز، حمضيات، خُضر. إلا أن أكثر ما لفت انتباه ستار في تلك الأثناء هو الحيوانات والطيور الداجنة التي خرجت من الزرائب والأقنان إلى البساتين والحقول الخضراء، منتشية بالشمس والخضرة، تنقر وتعض، وتأكل، تقفز، تأكل، وتتشابك في عدوان أليف أقرب إلى المداعبة منه إلى العنف. وفجأة، ابطأت الحافلة من سرعتها، ثم توقفت، وأعلن السائق أن هناك عطلاً في المحرك. وبعد حوالي ساعة، وبمساعدة ذوي الخبرات من الجنود الذين لهم باع في ميكانيك السيارات، أعلن السائق أنهم تمكنوا من إصلاح الخلل، لكن تبقى هناك مشكلة لا حل لها، في ذلك الحين على الأقل، فراح يلفت الانتباه إلى عدم إمكانية السير بسرعة أكثر من 60 كيلو متر في الساعة، مما يعني المزيد من ساعات التأخير، إذ خمن البعض صباح اليوم التالي كأقصى موعد للوصول إلى البصرة.

انطلقت الحافلة مثل سلحفاة في سباق خاسر، وراحت السيارات تخطف على يسارها مثل أرانب خفيفة هازئة. الأمر الذي أثار حنق بعض

الجنود، بينما اعتبره المتطيرون سوء طالع، في الوقت الذي عده آخرون، وهم الأكثر إيماناً، أمراً اختاره الله ودفع به ما هو أعظم، كأن يكون حادث مأساوي، أو عملية سلب تجري كالعادة على أيدي قطاع الطرق الملثمين. أما ستار فقد خامره الشعور باللا مبالاة، سواء انقلبت الحافلة، أو تعرض ركابها للسلب، أو استمرت بالمسير إلى الجبهة، هناك حيث يتوفر مصير أكثر عنفاً من تلك المصائر التي توفرها طوارق الليل والنهار. وكان قد التفت إلى الجندي القارئ إلى جانبه، كان يقرأ كتاباً آخر على ما يبدو، أو هذا ما أوحى به الغلاف الذي تسنى لستار رؤيته، كلما طوى الجندي دفتي الكتاب، ليطرد بيده دخان سجائر الجنود، أو يضغط على أنفه بإبهامه وسبابته، ممتقع الوجه، شاعراً بالتقزز من الروائح الكريهة للقيء الذي ما زال البعض، ممن يشكون اضطرابات المعدة ودوار السفر، في انتزاعه من احشائهم وقذفه في أكياس نايلون.

«ماذا تقرأ الآن يا صاحبي؟»

سأل ستار الجندي القارئ النحيل، الذي بدا له في ذلك الحين، بفضل ضوء الصباح، إنه أكثر نحولاً، كضفدع تقيأته أفعى.

«مزرعة الحيوان» قال الجندي القارئ مستاء، بصوت أشبه بمأمأة خارجة من بطنه: «جورج أورويل».

عند ذاك، أراد ستار أن يقول له بالطريقة نفسها التي كانت عندما وصف اسم بورخس بشجرة خوخ: «يبدو كهوائي تلفاز!» لكنه ابتلع رغبته تلك، وذكره عنوان الكتاب بالحيوانات والطيور التي صار بالإمكان رؤيتها على نحو أكثر وضوحاً. خيول، حمير، بقر، عنزات،

كلاب وجراء، خراف، دجاج، قطط، وغربان تنعب وتلعب متشمسة في أعالي أشجار الكالبتوس والأثل، أو على سعف النخيل الباسق. وعدا ذلك، هناك الجرذان التي يمكن رؤيتها أحياناً وهي تخرج من تحت الأبواب ضاغطة أجسادها الرمادية السمينة، وتمشي بتثاقل بمحاذاة الجدران الطينية إلى حيث تكون الزبالة، أو حُفر الخراء خلف البيوت. وفكّر ستار بإحساس من يلقي نظرة حسد على أحدهم: «لو أنني حمار!» توقد ذهنه بمشهد حمار كتلك التي يراها الآن تنعم بفترة استراحتها، أمام البيوت، حمار سعيد يأكل قشور البرتقال وأوراق الخس، يستلقي على ظهره ملوحاً بقوائمه الأربعة، ينظر إلى أنثاه بنصف اغماضة، أو يقف واجماً تحت أشعة الشمس الدافئة، دونما حراك، يتدلى منه سلاح متهدل يربك النساء المارات: ذلك أفضل من الذهاب إلى الجبهة! يردد بصوت يبدو أنه خرج، مثلما حدث مع قارئ جورج أورويل، من بطنه. صوت لا يمكن التغاضي عن كونه نهقة حمار، من تلك الحمير التي يسلخ الرعاة ظهورها بالماء المغلي، ليهيّجوا في جلودها ألم السياط فلا تعود إلى عنادها الشهير بالكف عن سحب العربات الثقيلة المحملة بالإسمنت. حمار يستحثه الأولاد على النهيق في نوبات وجومه بين الحين والآخر بكلمة مستفزة: «يوي يوي يوي!» يرددونها بصوت واحد، مستمر، مزعج، يطن في أذنيه اللتين تتحركان إلى أسفل وأعلى، يميناً ويساراً: «يوي يوي يوي!» يمتقع وجهه، يمط شفتيه، يبدي عن أسنان كما لو أنها خرجت للتباهي: «يوي يوي!» يرفس بقائمتيه الخلفيتين: «يوي!» ينهق مثل منكوب.

يلفت انتباه ستار الصمت الذي بدأ يلف الحافلة فجأة، كما يلف

الكفن جسد الميت، على الرغم من وجود اكثر من خمسين جندياً جميعهم كانوا يتنفسون، يلغون، يمزحون، يكفرون، يستغفرون، يضحكون، يبكون، يضرطون، يتبولون، يتقيأون، يتحرقون. لكنهم، في ذلك الوقت من النهار، في ذلك الضحى الدافئ، يبدون هادئين، كأنهم استسلموا دفعة واحدة إلى المصير الذي ينتظرهم في البصرة، تلك المحرقة التي يسمونها لؤلؤة الخليج، التي حولتها الحروب إلى أسوء مدينة غير صالحة للسكن.

«ماذا لو أكون خروفاً؟» قال ستار بصوت خافت كما لو أنه يسأل قارئ جورج أورويل النحيل إلى يمينه، زمّ شفتيه والتفت إليه نصف التفاتة: «أليس هذا أفضل من أن يفرمني الإيرانيون في نهر جاسم؟» ثم قال بصوت يمكن للجندي بجانبه أن يسمعه: «لعله افضل من عنزة هأ هأ» لكنه فكّر أنه ربما سيُذبح في عيد الأضحى، أو في عاشوراء مع الدجاج والعجول. وبإحساس التائه، كما لو أن أحدا ألقى إليه دلواً في بئر قال «بقرة!» وبالحماس نفسه، وبنصف الالتفاتة نفسها كأنه يكلم نفسه، قال: «حبذا لو كنت بقرة!» نظر بعدها متحسراً من خلل زجاج النافذة، إلى الأبقار التي ترعى وسط الجت، وقال متأسفاً: «تلك مشكلة الهنود يا صديقي، يقال أنهم يعبدون البقرة! ما هذا الجفاء؟ أما انا فلا يمكن أن أتمنى هذه الأمنية الغبية، أن أكون بقرة في معبد. ومن أنا حتى أكون رباً لكل هؤلاء المخبولين! أعيش وحيداً وأموت وحيداً. مجرد بقرة سائحة، ليس ثمة راعٍ يقودها إلى الزريبة، ولا أيدٍ انثوية ناعمة، سمر، لطيفة ومحناة تدعك ضروعها لتدر حليباً يغذي المساكين!» وقرر بشكل صارم، كما لو أنه سيتحول إلى بقرة حقاً إن لم يحسم أمره بانتقاء حيوان

آخر ويتمنى أن يكونه، بدلاً من الذهاب إلى حفلات القتل، في شرق البصرة: «لا.. لن أكون بقرة أبداً. ربما عليَّ أن أكون فرساً. نعم هكذا أفضل» وتذكر الحكايات الطريفة التي كان يرويها جده عن حصانه الذي انتقل فجأة، من عمله في نقل المؤن وأكوار السعف والتبن، إلى بطل مشهور في سباقات الريسز في بغداد، فقد اكتشف الانكليز عن طريق الصدفة أنه حصان عربي أصيل، أصهب، رشيق، وقوي، ولا بد أن يأخذ مكانته اللائقة. فأطلقوا عليه اسم بيرلي تيمناً ببيرلي تورك، أحد الخيول الثلاثة الأشهر في بريطانيا، والذي استولى عليه الكابتن بيرلي في معركة بودا على نهر الدانوب ضد العثمانيين أواخر القرن السابع عشر. وكان جد ستار يروي تلك التفاصيل ويتحدث عن مآثر الحصان بحزن وحنين عظيم، وكيف أنه فرط به فيما بعد، حينما باعه للانكليز الذين سفروه إلى بريطانيا للمشاركة في سباقات نيوماركت الشهيرة.

الآن، وبعد أن تذكر ستار أن خيول هذا الزمن لم تعد تنفع إلا للأعمال الشاقة، سحب العربات المحملة باسطوانات الغاز، وأحواض النفط الأبيض، وأكياس الطحين، والخضر والفواكه، راح يقترح أمنية أخرى يتمناها لنفسه، ليتخلص من ضغط الصور الرهيبة التي تقبع في رأسه، تلك المشاهد التي عادة ما تكون عبارة عن أشلاء ممزقة، تظهر في صور من المعركة التي تُعرض في التلفاز بين الحين والآخر. لكنه لن يكون قطاً لا يعرف السباحة، ولن يكون كلباً لا يعرف صعود الأشجار، إذ لا يمكنه التفريط بأجمل ذكريات الطفولة والصبا، تلك التي قضاها عائماً في مياه الأنهار، وفوق النخيل وأشجار السدر والبمبر. ولأن الجرذان تذكره دائماً بمجارير الغائط، عدا تلك التي تُعدم في أقفاص

الإبادة التي يسمونها مختبرات، فقد رأى أن من القذارة جنوح خياله نحو تلك الأمنية التي يكون بموجبها جرذاً يكاد أن يتحسس مخالب القطط في لحمه، وروائح المبيدات في خياشمه حتى وهو نائم.

«دجاجة؟» قال، بالصوت الخافت نفسه، الصوت الذي يخرج من بطنه، دونما حركة من شفتيه تدلل على أنه يتكلم حقاً: «أيعقل أن أكون دجاجة؟» أحس بإسته ينبض فجأة. كره شعور الدجاجة وهي تبيض، تقأقئ بذلك الصوت الذي يتزامن مع لفظ شرجها للبيضة، ترتخي عيناها، كأنها على وشك أن تغفو، قبل أن تبدأ بإحداث كل تلك الفوضى، ذلك الزعيق الأهوج، الكريه، الذي لا بد أنه يزعج قليلولة عجوز متقاعد في هذا الوقت من النهار.

التفت ستار، وجاءت التفاتته هذه المرة، على نحو كأن أحداً نقر طبلة أذنه اليمنى فجأة، صوت عنزة، مأمأة صدرت من قارئ جورج أورويل، لكنه وجده يصوب نظره بتقزز كمن رأى ذبابة مقلوبة على أحد جناحيها في إناء المرق، يصوبه نحو دفتي مزرعة الحيوانات على فخذيه، كأنه يريد اجتذاب الأسطر، انتزاعها، شفطها إلى عينيه، كما يفعل الدجالون في مكائد الشعوذة.

«هل يمكن أن أكون غراب مثلاً؟» سأله، وقد تبادرت إلى ذهنه العدالة في مجتمع الغربان. الذكاء، الفطنة، المروءة التي قد يفتقدها الإنسان.

«من يربي الغربان تسمل له عينيه!» أجابه قارئ جورج أورويل، ثم عاد ليقرأ من جديد، وقد ازداد تقززه: «لا أتذكر قائلها، ربما ماركيز، أو ليوناردو دافنشي أو رامبو».

تساءل ستار في نفسه: «من اين يأتي بتلك الأسماء؟» لا بد أنه معقد، أغلب الذين يقرأون الكتب معقدون، مخبولون، متوجسون، يجلسون في المقاهي ولا يكاد أحدهم يتحدث إلى الآخر، إلا إذا كان مخبولاً مثله، يقرأ الكتب، ويتبجح بتلك الأسماء التي تشبه أشجار الخوخ، وهوائيات التلفاز، وأسماء لاعبي الكرة، وحفاري القبور والممثلين ذوي العضلات المفتولة. فهو لا يعرف أحداً من الكُتاب سوى إرنست همنغواي، درسه في كتاب الانكليزي في الصف السادس الإعدادي، ولم يحفظ منه سوى عبارة واحدة في وقت كان رأسه يعاني من نوبات الصداع النصفي الذي بدأ يرافقه طوال الأعوام اللاحقة: «لا تفقد توقدك أيها الرأس!» لكنه أيضا لا يزال يتذكر أحداث تلك القصة العجيبة، والمحنة التي عاشها سانتياغو الصياد العجوز في البحر، وكيف أن القروش الجشعة تناهبت لحم سمكته الضخمة، ولم تبقي منها سوى هيكلها العظمي، كما. ويبدو ذلك جلياً. فعل الزمن بقارئ جورج أورويل النحيل، الممتص، الذي يمكن القضاء عليه بإحكام النطاق حول بطنه، وشطره إلى نصفين.

لا يزال الوجوم يخيم على جو الحافلة التي كانت تتهادى على الإسفلت البارد بإحساس سلحفاتي يبعث على التذمر، كما لو أن أحدا حقن ذلك الجو ـ ذلك الردف المصاب بأكزيما البلاهة المعتادة، المؤخرة التي تطبخ النتانات البشرية ـ بالصمت، حتى انتفخ، فلا يكاد يُسمع فيه صوتاً، أو حتى همساً لأحد الجنود المساقين إلى الحرب، الجنود الذين ألصقوا أعينهم بزجاج النوافذ، وراحوا يلهون أنفسهم بالنظر إلى مشاهد الحياة الدائبة التي ترفع ثوبها كل حين، قائلة لهم: «هاي يا سنافري الصغار، ها أنا مستمرة، مستمرة!».

مع شروق صباح اليوم التالي، وما أن دخلت الحافلة الحدود الإدارية لمدينة البصرة في القرنة، حتى بدأت حيواناتها بالنزول تباعاً، والالتحاق بالزرائب والأقنان، بالاسطبلات والأبراج المبلطة بالذروق، بالجحور والبلاليع الموبوءة والمجارير النتنة، الحقول والبساتين والمطاحن ومفاقس البيض. كان يراها من خلل زجاج النافذة تنطلق نحو العشب والماء والشمس، نحو الروث والقذارة، والوحل. خيول، حمير، بقر، عنزات، كلاب وجراء، خراف، دجاج، قطط، وغربان، وجرذان. الجميع يبدون سعداء، يغبطهم الجنود المحشورين في الحافلات التي كانت تخطف مسرعة لتوزعهم على طول الحدود المشتعلة بين العراق وإيران. لم يتبق سوى ستار والعنزة التي بجانبه، العنزة الضئيلة، الممتصة، التي تقرأ جورج أورويل، وقد أطلقت في آخر الأمر مأمأة أخيرة في وجهه وسلكت الممر الضيق المفضي إلى باب الحافلة، وثبت بخفة، وراحت تتبع صوت الأجراس المتدلية من أعناق عنزات يهرسن برحيهنَّ أزهار صفراء بشهية متفتحة، ويتلفتن بذهول في كل الاتجاهات، قبل أن يتبعن راعٍ عجوز راح يعزف بنايه ألحاناً ريفية رائقة. وبعد أن نزلت جميع حيوانات الحافلة التي وصلت إلى الكَراج في ساحة سعد، ولم يبق سوى السائق والجابي، وهو صبي لم يتجاوز الثالثة عشرة من عمره، يرتدي سروال نيلي فضفاض متسخ بالزيوت ويضيق عند القدمين، وكان هذا قد اتجه نحو ستار، بعد أن همس أستاذه السائق في أذنه شيئاً، ووقف أمامه، ينظر إليه بعينين وقحتين، وثمة ابتسامة لا تخلو من خبث أعشبت على شفتيه. وفجأة، صوّت الصبي بأعلى صوته:

«يوي يوي يوي!».

فزع ستار. أحس بأذنيه تتحركان، إلى أعلى وأسفل، يميناً وشمالاً، فأمسكهما بقوة كأنه يمنعهما من الطيران. أغمض عينيه، وراح يضغط على رأسه بيدين متشنجتين، يقاوم بيأس انقياد أسنانه اللا إرادي إلى الصرير، ويردد بصوت أشبه بالبادرة الأولى لنهيق حمار مُستفز، يائس، ومُهان، عبارة العجوز سانتياغو في قصة الشيخ والبحر « لا تفقد توقدك أيها الرأس! » بينما الصبي الوقح، ذو العينين المشاكستين ينبح:

«يوي يوي يوي!».

قلب الفجر

عاش أمور آخر أيامه، قبل أن يموت بالتخمة، في حي الفجر الساطع، الذي سمي بهذا الاسم لكثرة الديكة الصياحة فيه. كان مثل قط الإعرابي، أسماءه كثيرة وثمنه قليل، فقد اشتراه رجل عجوز أعزب يعيش مع شقيقته بتلة العانس في بيت صغير، من سوق الجمعة بسعر بخس، رغم أن الفتى الذي باعه إياه ادعى أنه تربية الأمريكان. كانوا يسمونه أنجلو ـ فقد أخصوه ودربوه على صيد الفئران، وبعد أن سمن وترهل لحمه أقالوه من الخدمة. بتلة العانس شقيقة نجم أسمته أش أش، في حين يسميه الجيران تشوتشو، والمطيرجي الذي كاد أن يقتلع عينه بحصى قذفها من مقلاع، ثأراً لحماماته التي اتهمه بأكلها، فكان يسميه دعبس، وعدا ذلك كان اسم أمور الذي أطلقه عليه نجم هو السائد في أغلب الأحيان، بالاضافة إلى أسماء الدلع: دودو، دنش، سيكا، ظاظا، عنتر، كبابا.

في أحد الأيام، ترك أمور كرة الصوف التي كانت بتلة تحوك منها قميصاً لطفلها الذي لن يأتي، وراح يختلس النظر من خلل النافذة، إلى قطة جميلة كانت تلعق مؤخرتها على السياج. أُغرم بها، وظل يموء على نحو جذب انتباه بتلة التي ظنت أنه جائع، فقدمت له أحشاء السمكة التي كانت غداء ذلك اليوم، إلا أنه لم يأكل.

منذ ذلك الحين وأمور يراقب القطة، وهي تفتعل ألاعيبها الخليعة، كأنما تفعل ذلك للإيقاع به، إلا أنه لم يتحرك من مكانه، كان ينظر إليها ويلعق مكان عضوه الميت. يأخذ ما تقدمه له سيدة البيت من أمعاء الأسماك وعظام الدجاج ويتركه على السياج، ويعود إلى مكانه ليستأنس بمرأى تلك القطة وهي تأكل بمتعة وتلعق شفتيها بامتنان. وذات يوم، بينما هو يراقب قطته وهي تتشمس على السياج وتواصل لحس مكانها الحساس، كما لو أنها تتعمد ذلك لتستمني، رأى أمور ديكاً كبيراً يختال بمشيته على السياج، فارداً جناحيه، نافشاً ريشه، ويصيح بهياج. اقترب من القطة وراح ينقرها بقوة كما لو أنه في حلبة مهارشة، حتى طردها. اغتاظ أمور وتألم لأنه لم يعد يرى قطته، فقد احتل الديك مكانها على السياج واتخذه مقراً يراقب منه دجاجاته، عندئذ، قرر أن يقتص من ذلك الديك الشقي.

في اليوم التالي، استيقظت بتلة على قأقأة دجاجاتها. كنّ مهتاجات، كأن عبوة انفجرت في القن وأحدثت فيهن ذلك الهياج الفظيع، ولم يتبد السبب الحقيقي في ذلك إلا في وقت متأخر، حين لاحظت بتلة غياب الديك، الذي لم يعد له من أثر في أي مكان. مما أتاح لقطة أمور الخليعة العودة إلى مكانها على السياج، والتشمس هناك، كاشفة عن مفاتنها، لاحسة مكان إثارتها، باعثة المزيد من متعة النظر لـ أمور الذي لا بد أنه كان سعيداً، غير متأسف لموت الديك بمخالبه وأنيابه في ساعة متأخرة من الليلة الفائتة. لكنه، سرعان ما عاد ليشعر بالقلق، بعد أن رأى ديكاً آخر، يقفز من سطح الجيران إلى سياج البيت، ويقترب من قطته الفاسدة، لينقرها ويجبرها على المغادرة، ويحتل مكان غريمه ليشغل

فراغ الدجاجات الأرملات. إلا أن أمور لم يمهله الكثير من الوقت، فقد طرقت جارة بتلة الباب في اليوم التالي، لتستعلم عن ديكها المفقود.

ذاع خبر الدجاجات الأرملات في أنحاء حي الفجر الساطع، ووصل إلى الأقنان، فانتصبت أعراف الديكة ونفشت ريشها وازداد صياحها، وراح الديك تلو الآخر يجرب حظه بالتسلل إلى بيت الأخوين نجم وبتلة العانس، ليتكرر مشهد طرد القطة الخليعة من السياج أمام أمور الذي سمن على نحو مريب.

صارت ظاهرة اختفاء الديكة على كل لسان، ومع اختفاء آخر ديك في الحي، توقف الفجر عن كونه فجراً، تحول إلى أجل غير مسمى، ساعة لا يبدو أنها ستنتهي، خصوصاً وأن هناك ديكاً مخصياً، رغم أنه لا يعبأ بالدجاجات الأرملات، لكنه في الوقت نفسه لا يبدو مكترثاً بكونه قلب الفجر النابض. ديكاً عجوزاً خائراً يختبئ في مكان ما، يفكر بجدوى إيقاظ الناس للصلاة في حين هو لا يصلي.



اللؤلـؤ

في أعالي الفاو، جنوب شرق البصرة. أحب غازي الغواص إحدى طواشات التمر الأهوازيات، اللائي كن يعبرن الشط إلى الضفة العراقية، للعمل أثناء موسم جني التمر.

المرة الأخيرة التي التقيا فيها على ضفة أحد الأنهر المتفرعة من الشط، تلك التي يجري فيها الدبس السائح، بفعل الشمس، من أكوام التمر المكدسة على الضفاف، بعد أن تفيض بها «الجرادغ» وعد غازي حبيبته بهيجة أن يغوص من أجلها في مياه خليج البصرة، ليوفر لها مهرها، عقد اللؤلؤ الذي وعدها به. ففرحت بهيجة بذلك، وطلبت منه أن يخبئه جيداً، لكي لا تطوله أيدي النساء.

«لا تخافي» قال غازي الغواص بينما هو يغمس سبابته في الدبس الجاري ببطء أسفل الجرف، ويلعقه: «سأخبئه في عينيّ».

ثم نقر خد حبيبته بشفتيه. كانت قبلة بطعم الدبس، افترقا بعدها. هي عبرت الشط إلى ديارها، في الضفة الإيرانية. وعاد هو إلى البحر بحثاً عن اللؤلؤ، عن مهر بهيجة. لكنهما لم يلتقيا بعد ذلك اليوم لسنوات عديدة. فقد اندلعت الحرب العراقية الإيرانية، وجرفت معها كل شيء. بهيجة، وأنهار الدبس، واللؤلؤ.

تزوجت بهيجة بعدها بعام وقُتل زوجها في الحرب. مما وفر لها فرصة مناسبة لاستمرار بكائها على معشوقها الغواص. ذلك البكاء الذي امتد لأعوام ذرفت فيه عشرات الغالونات من الدموع، حتى كادت أن تفقد بصرها في النهاية. في حين سيق غازي الغواص إلى الخدمة الإلزامية في الجيش. وإلى أن انتهت الحرب في عام 1988، كان جسده قد امتلأ بالجروح والندوب، وكانت مهنة الغوص على وشك الاندثار حينذاك، مما اضطره إلى العمل في انتشال جثث الغرقى. وما زال يغوص ويغوص في مياه البحر والشط والأنهار الكثيرة في البصرة، وينتشل المزيد من الجثث، حتى فقد بصره وابيضّت عيناه تماماً بعد حرب 2003.

في تلك الأثناء، كانت بهيجة الأهوازية تحتفظ بشيء ضئيل من بصرها، يمكّنها من رؤية الأشياء بصعوبة، إذا ما رغبت بذلك، وبتركيز مضنٍ مشفوع بالدموع اللا إرادية التي تنضح جراء إمعانها النظر مطولاً، قبل التعرف على الشيء، عندما قادتها الصدفة إلى عيادة طب العيون في طهران، حيث التقت هناك بغازي الغواص، الذي مرّ بينما هو في طريقه إلى زيارة الإمام الرضا في مشهد، بتلك العيادة، علّ الطبيب يصلح ما أفسده البحر والشط والأنهار. فعل ذلك على مضض، بإلحاح وضغط من قبل ابن شقيقه الأصغر.

«التالي» صاح سكرتير الطبيب: «بهيجة ماجدي»

فأجابت بهيجة بلهجة أهوازية محببة لم يفهما سوى المراجعين العراقيين، من الذي تهافتوا على العلاج في إيران بعد حرب 2003.

لم يكن غازي الغواص يعرف اسم عائلة بهيجة. لكنه تعرف على

صوتها، على الرغم من مضي فترة طويلة جداً على آخر مرة سمع فيها ذلك الصوت. كاد قلبه أن يقفز من بين أضلعه في ذلك الحين. نادها بصوت لم يُبق منه الزمن سوى حشرجة بالكاد خرجت لتستوقفها. وطلب من ابن شقيقه أن يقوده إليها. ففعل هذا ما طلبه منه، وسط استغراب وتساؤل عما إذا كان عمه يعرف تلك المرأة حقاً، أم أنه واهم، فيكون تصرفه على هذا النحو مدعاة للخجل.

«بهيجة!»

لم ترد المرأة. كانت واقفة هناك، أمامه، بوجهها الستيني المترهل، وعينيها اللتين بدتا أصغر مما كانتا عليه قبل سنوات طويلة، بينما هي تضيقهما وتمعن النظر إلى عيني الرجل البيضاويتين المخيفتين. الرجل الذي عاد وهتف باسمها مجدداً، كما لو أنه متأكد من معرفتها.

«هذه أنتِ يا بهيجة!»

مد غازي يده التي ظلت معلقة دونما جواب: «ألم تعرفيني؟»

تراجعت المرأة، وسط ذهول المراجعين في صالة الانتظار:

«أنا لا أعرفك!» قالت المرأة أخيراً بلهجة مرتابة: «لكن.. ماذا أصاب عيناك؟!»

«لا تخافي يا بهيجة!»

قال غازي الغواص، بينما هو يمد يده ثانية، كما يفعل عادة وهو يشق طريقه في الظلام. وقد تخلص من يد ابن شقيقه بحركة عنيفة. راح يتقدم بخطاه الواهنة نحو المرأة، التي كانت تتراجع إلى الوراء:

«لا تخافي.. هذا ليس بياض العمى. هذا بياض اللؤلؤ، خبأته لكِ في عينيّ، لكي لا تطوله أيدي النساء!».

الفهرس

حديقة الأرامل

ضياء جبيلي

قصص

(هذه مجموعة من القصص تجترح عوالمها من اليومي الساخر حيناً ومن الغرائبي والفنطازي حيناً آخر وتحاول أن تطرح الواقع بأشكال غرائبية مختلفة. لافتات عن الحب والحرب، عن القسوة والانتظار، عن الوهم والحزن والألم والبلاد التي لم تعد تملك سوى أن تكون قبراً كبيراً للجميع. قصص عن الجدران التي عليها أن تحتمل كل هذا العذاب).

لوحة الغلاف: للفنان صدام الجبيلي



ISBN 978-1-7732221-2-7

9 781773 222127

دار سطور للنشر والتوزيع
بغداد ـ شارع المتنبي ـ مدخل جديد حسن باشا
هاتف: 07711002790ـ 07700492576
e.mail: bal_alame@yahoo.com